

سُورَةُ الرِّعْدِ

حِينَ يَهْدُرُ الْكَوْنُ بِالْحَقِيقَةِ

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الرَّعْدِ

حين يهدر الكون بالحقيقة ولا يسمعها
الإنسان

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تمهيدية

حين يهدر الكون بالحقيقة

ثمة سور تقرأها فتشعر أنها تحدثك من داخل النفس، وثمة سور ترفعك من ضيق الذات إلى اتساع الكون، ثم تعيدك إلى قلبك وقد صار أكثر إدراكًا لحجمه، وأشد معرفة بربه. وسورة الرعد من هذا الصنف الجليل؛ إنها تفتح أمام الإنسان كتاب الوجود، وتقيمه بين سماء مرفوعة، وأرض ممدودة، وجبال راسخة، وأنهار جارية، وسحاب مثقل بالماء، وبرق يجمع في ومضته بين الخوف والطمع، ورعد يهدر في الآفاق وهو يسبح بحمد الله.

ليس الكون في هذه السورة خلفية صامتة للأحداث، بل شاهد قائم على الحقيقة. كل شيء فيه يؤدي شهادته بطريقته: الشمس والقمر بجريانهما، والليل والنهار بتعاقبهما، والأرض بتنوع ثمراتها، والسحاب بما يحمله من ماء، والظلال بسجودها، والرعد بتسبيحه. وكأن السورة تجمع أصوات الوجود كلها في شهادة واحدة: أن لهذا

الكون ربًّا واحدًا يدبر أمره، وأن الوحي الذي أنزله هو الحق، وأن الإنسان عائد إليه لا محالة.

تبدأ السورة بهذا الإعلان الحاسم: (وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ).

لا تقدمه بوصفه رأيًا قابلاً لأن تمنحه الأكثرية صدقه أو تسلبه إياه، ولا بوصفه احتمالاً بين احتمالات متساوية؛ بل تعلنه حقاً ثابتاً، سواء آمن به الناس أم أعرضوا عنه. فالحقيقة لا تكتسب حقيقتها من كثرة المصدقين، كما لا تفقدها لكثرة المكذبين. قد يبقى الحق وحيداً في لحظة من التاريخ، لكنه لا يصير باطلاً بوحده؛ وقد يحتشد الناس حول الباطل، لكنه لا يصير حقاً بازدحامهم حوله.

ومن هذه الحقيقة تبدأ السورة في إعادة بناء رؤية الإنسان إلى نفسه والعالم. فالكون ليس فوضى، والحياة ليست حوادث سائبة، والإنسان ليس كائنًا أُلقي في الوجود ثم ترك لمصادفات الطريق: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ).

ما من حركة في هذا الوجود إلا وهي داخلة في علم الله وتقديره. الأرحام التي تخفي أطوار الحياة الأولى لا تخفي عنه شيئاً، والأقوال التي تُسر في الظلمات معلومة لديه كالأصوات المجلجلة

في وضوح النهار، والإنسان الذي يظن نفسه وحيداً تحيط به رعاية الله من حيث لا يشعر: (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ).

وما أحوج القلب المعاصر إلى هذه الحقيقة! إنه يعيش في عالم يفيض بالمعلومات، لكنه يفتقر إلى الطمأنينة؛ يملك وسائل كثيرة للتحكم، ثم يكتشف كل يوم مقدار الأشياء التي لا يستطيع التحكم بها. يخطط، ثم تأتي الحوادث من طرق لم يحسبها. يتعلق بالأسباب، ثم يراها تعجز أمام تفصيل صغير. يريد أن يعرف المستقبل كله قبل أن يخطو إليه، ولا يعلم أن من رحمته به أنه لا يحمل من الغيب إلا ما يكفي يومه.

تأتي سورة الرعد لتقول له: لست مطالباً بأن تعرف كل شيء، وإنما أن تعرف من يدبر كل شيء. ولست مكلفاً بأن تحيط بالطريق من بدايته إلى نهايته، بل أن تمضي فيه على هدى الله، مطمئناً إلى علمه وحكمته.

غير أن الإيمان بتدبير الله لا يعني تعطيل مسؤولية الإنسان؛ فالسورة نفسها التي تقول: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)، تقول: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

وهنا تلتقي الحقيقة القدرية بالمسؤولية الأخلاقية: الله مالك النتائج، والإنسان مسؤول عن السعي. فلا القدر حجة للعاجز، ولا العمل إذن للغرور. ينبغي للإنسان أن يبدأ من نفسه، من الأفكار التي تحكم رؤيته، والقيم التي توجه سلوكه، والعادات التي تبني مصيره، ثم يأخذ بالأسباب ويستعين بالله.

إن المجتمعات لا تتغير حقًا بمجرد تبدل الأسماء والوجوه؛ فقد تتغير الواجهات ويبقى الظلم نفسه، وتتبدل الشعارات وتظل العصبية والمصالح القديمة تدير الواقع. وإنما يبدأ التغيير حين يتغير الضمير: حين يصبح الحق أحب إلى الإنسان من انتصار ذاته، والعدل أعلى من محابة قريبه، والأمانة أقوى من فرصة الخيانة، وخشية الله حاضرة حين تغيب رقابة الناس.

وفي قلب السورة يجيء المثل الذي يكاد يلخص تاريخ الحق والباطل كله: (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا).

ينزل الماء من السماء، وتسيل به الأودية، ويعلو فوقه الزبد. يكون الزبد هو الظاهر للناظرين، المنتفخ على سطح المشهد، حتى ليبدو كأنه كل شيء، بينما يجري الماء النافع تحته في هدوء. ثم لا يلبث الزبد أن يذهب جفاء، ويبقى الماء في الأرض يمنحها الحياة.

تلك صورة الباطل حين يرتفع بالصخب، ويملاً العيون، ويستعير من كثرة الظهور وهم البقاء. قد يملك المنابر والقوة وال جماهير، لكن ارتفاعه لا يغير طبيعته؛ فهو زبد، يحمل في داخله سبب فناءه. أما الحق فقد يكون هادئاً، محجوباً تحت الضجيج، لكنه يحمل سر البقاء؛ لأنه نافع، ولأن الله قضى أن ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

ومن هنا تعلمنا السورة ألا نحكم على الأفكار من رواجها، ولا على الرجال من صخب أسمائهم، ولا على المواقف من أرباحها العاجلة. فليس كل ما يطفو نفيساً، وليس كل ما يختفي ضائعاً. قد تمر الكلمة الصادقة بلا تصفيق، ثم تستقر في قلب إنسان، فتنبت فيه بعد أعوام موقفاً عظيماً. وقد يملأ الباطل زمنه ضجيجاً، ثم لا يترك وراءه إلا العبرة.

إن الماء لا يعلن أنه سر الحياة؛ يكفي أن تراه في اخضرار الأرض.

وفي مقابل اضطراب المشهد الخارجي، تقودنا السورة إلى أكثر مواضع الإنسان حاجة إلى السكينة: القلب. وبعد البرق والرعد والصواعق والسحاب، تأتي الآية كأنها موطن آمن في قلب العاصفة: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

لا تعد السورة المؤمن بحياة لا رعد فيها، ولا بطريق لا يمر بالابتلاء، لكنها تدله على الطمأنينة التي تبقى حين تضطرب الحياة. فالطمأنينة ليست ألا يخاف الإنسان أو يحزن؛ بل ألا يتحول خوفه إلى يأس، ولا حزنه إلى قطيعة مع الله، ولا ألمه إلى انهيار أخلاقي.

قد يبكي القلب وهو مطمئن.

وقد تضيق به الأسباب، ولا يضيق رجاؤه.

وقد تتخلى عنه أيدي البشر، ويبقى مستندًا إلى علم الله ورحمته.

فالذي يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد، يعلم ما يخفيه القلب من وجع. والذي يسمع تسبيح الرعد يسمع الدعاء حين يخرج همسًا مكسورًا. والذي ينشئ السحاب الثقال قادر على أن يحمل إلى عبده فرجًا يتكون في غيب لم تره عيناه بعد.

ثم ترسم السورة ملامح أولي الأبواب، فلا تجعل العقل كثرة معلومات أو براعة في الجدل، بل تجعل ثمرته وفاءً وصلَةً وخشيةً وصبرًا. إنهم يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر به أن يوصل، ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب، ويصبرون ابتغاء وجهه، ويسيئون الصلاة، وينفقون من رزقه، ويدروون بالحسنة السيئة.

وهكذا يكشف القرآن أن العقل الحق قوة أخلاقية، لا آلة محايدة. فليس أعقل الناس من يملك أوسع الحيل، بل من يرى عاقبة الطريق قبل أن تغريه بدايته، ويقاوم هوى نفسه حين يستطيع أن ينتصر به على غيره.

وفي الجهة الأخرى يقف الذين ينقضون العهد، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض. إنها سلسلة دقيقة: يبدأ الفساد بنقض الصلة بالله، ثم يمتد إلى قطع الصلات بين الناس، ثم يظهر في الأرض ظلماً وتمزقاً واضطراباً. فالخراب الكبير يبدأ غالباً من خيانة صغيرة استقرت في الضمير ثم وجدت طريقها إلى الواقع.

ومع اشتداد المحنة، تربي السورة المؤمن على ألا يسمح للسيئة بأن تعيد تشكيل روحه: (وَيَذَرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ). ليس النصر أن ينجو الجسد وحده من الأذى؛ بل أن تنجو الأخلاق من التحول إلى صورة من أخلاق المؤذي. فالظالم يهزمك مرتين إذا آذاك أولاً، ثم جعلك ظالماً مثله.

وحين يطول الصبر، تفتح السورة أبواب الجنة، فإذا الملائكة تدخل على المؤمنين من كل باب: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ).

هناك يفهم الصابر لماذا طال الطريق.

وهناك يرى أن الدموع التي لم يرها الناس لم تضيع.

وأن كل مرة قاوم فيها الحرام كانت تبني له موضعًا في دار السلام.

وأن الليالي التي ظنها بلا نهاية قد انتهت، أما ما عند الله فلا ينتهي.

هذه الرحلة التأملية ليست تفسيرًا تفصيليًا يغني عن الرجوع إلى كتب التفسير، وإنما هي محاولة للوقوف عند المعاني الصحيحة التي تدل عليها لغة الآيات وسياقاتها، ثم استنطاق ما تفتحه من هدايات نفسية وإنسانية وإيمانية، دون تحميل اللفظ ما لا يحتمل، أو جعل البلاغة بديلًا عن أمانة المعنى.

سنمضي مع السورة من إعلان الحق في مطلعها إلى شهادة الله للرسول ﷺ في ختامها؛ نقرأ كتاب الوحي في ضوء كتاب الكون، ونقف بين الرعد المسبح والقلب الذاكر، وبين الزبد العابر والماء الباقي، وبين الذين ينقضون والذين يوفون، وبين متاع ينتهي وجنة أكلها دائم وظلها.

لعلنا نخرج منها بميزان جديد: فلا يرهبنا ارتفاع الباطل، ولا يخدعنا بريق الدنيا، ولا يجعلنا تأخر النتائج نشك في وعد الله.

ولعلنا نسمع في هدير الرعد نداءً يوقظ القلب من غفلته، ويذكره بأن الكون كله خاضع لربه، وأن الطمأنينة لا تأتي حين تسكت العواصف كلها، بل حين يعرف القلب مَنْ يملك العاصفة.

تلك هي سورة الرعد: سماء تهدر بالتسبيح، وأرض تنطق بالآيات، وماء يكشف حقيقة البقاء، وقلب لا يجد سكينة الكاملة حتى يعود إلى الله.

والحقيقة أن ثمة سور تقرأها فتشعر أنك تمشي في الأرض، وثمة سور ترفع رأسك قسرًا إلى السماء. وسورة الرعد من هذه السور التي تأخذ الإنسان من ضجيج نفسه الصغيرة إلى ضجيج الكون العظيم؛ تريه السماء مرفوعة، والشمس والقمر مسخرين، والأرض ممدودة، والجبال راسية، والأنهار جارية، والليل يغشى النهار، والبرق يلمع، والسحاب يثقل بالماء، والرعد يسبح بالحمد، ثم تعيده بعد هذا المشهد الهائل إلى قلبه وتسأله في صمت: كيف تستطيع أن ترى كل هذا ثم يظل في داخلك موضع للشك؟

إنها سورة الحقيقة حين تكون أكبر من أن تخفيها الغفلة.

وسورة القوة حين يتوهم الإنسان أنه قوي.

وسورة التغيير حين يطالب الناس العالم أن يتغير قبل أن يتغيروا.

وسورة الدعاء حين تمد الكف إلى السماء، فتتعلم أن السؤال شيء، وبلوغ المسؤول شيء آخر.

وسورة الحق والباطل حين تضرب لهما واحدًا من أبدع أمثال القرآن: ماء ينحدر من السماء، وسيل يحتمل زبدًا، فيعلو الزبد لحظة، ثم يذهب جفاء، ويبقى الماء الذي يمنح الأرض الحياة.

وكان السورة منذ أولها إلى آخرها تقول لنا: لا تحكموا على الأشياء من ارتفاعها العابر، بل من بقائها ونفعها. فالزبد أعلى من الماء لحظة، ولكنه لا يصنع حياة.

ولنبداً الرحلة.

الفصل الأول

الكتاب المفتوح والكون المفتوح

تبدأ السورة بالحروف المقطعة، ثم يجيء الإعلان العظيم: (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ).

من أول خطوة تضعك السورة أمام كلمة ستدور حولها رحلتها كلها: الحق.

ليست القضية أن هذا الكتاب فكرة جميلة، ولا فلسفة أخلاقية بين فلسفات، ولا خطاباً روحياً يمنح الإنسان شيئاً من السكينة؛ إنما القضية أضخم من ذلك كله: (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ).

إنه الحق، سواء صدقه الناس أم كذبوه.

وهنا يصح القرآن واحداً من أخطر أوهام النفس البشرية: أن كثرة المؤمنين بالفكرة هي التي تمنحها صدقها. كلا. قد تكون الحقيقة في ناحية وأكثر الناس في ناحية أخرى: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ).

الحقيقة لا تُنتخب.

ولا تتبدل بتبدل التصفيق حولها.

ولا تصبح السماء أقل ارتفاعاً لأن إنساناً أغمض عينيه عنها.

وهذه طمأنينة هائلة للداعية والمصلح وصاحب المبدأ؛ ألا يجعل معيار الحقيقة عدد الواقفين معه. فقد يمر على الإنسان زمن يشعر فيه بالغربة، ويرى الباطل أكثر عددًا وأعلى صوتًا وأوسع انتشارًا، فيأتي القرآن ليعيد ترتيب موازينه: لا تسأل أولًا كم شخصًا مع الحق، بل اسأل: أهو الحق؟

فإذا ثبت أنه الحق، لم تضره وحشة الطريق.

ثم كأن السورة تقول: أتريدون برهانًا على قدرة صاحب هذا الكتاب؟

ارفعوا رؤوسكم.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ).

يا للعجب!

الإنسان منشغل بسقف بيته، والقرآن يأخذه إلى سقف هذا العالم.
ومن الأرض الصغيرة التي يتنازع عليها البشر إلى سماوات
شاهقة قائمة بأمر الله.

ومن ساعة الإنسان القصيرة إلى الشمس والقمر : (كُلُّ يَجْرِي
لِلْأَجَلِ مُسَمًّى).

كل شيء يتحرك، ولكن لا شيء يتحرك سائبًا.

كل شيء يجري، ولكن لكل جريان نهاية.

الشمس نفسها — وهي التي رآها البشر منذ آلاف السنين تشرق
كأنها رمز الدوام — تجري لأجل مسمى.

والقمر كذلك.

فكيف يتوهم الإنسان وحده أنه بلا أجل؟

إنه يسكن عالمًا كُتبت الأجال على كل أجزائه، ثم يعيش أحيانًا كما
لو كان هو الاستثناء الوحيد من قانون الرحيل.

ثم تأتي العبارة التي لو استقرت في القلب لخفت عنه جبلاً من القلق: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ).

كم تحمل هاتان الكلمتان من سكينه!

الأمر ليس متروكاً.

والعالم ليس سفينة بلا ربان.

والحوادث التي تبدو لك متشابكة لا تتحرك خارج علم الله وقدره.

هناك تدبير إلهي لا تحيط به عيوننا المحدودة.

ونحن نرى صفحة واحدة؛ والله يعلم الكتاب كله.

وقد نقف أمام واقعة من حياتنا فنقول: لماذا حدث هذا؟ لماذا تأخر ذاك؟ لماذا أغلق هذا الباب؟ لماذا مضى هذا الإنسان؟ ولا نجد جواباً آنياً، لأننا نريد أن نفهم هندسة الطريق ونحن واقفون عند منعطف واحد منه.

لكن الإيمان لا يعني أنك تفهم كل شيء؛ بل يعني أنك تعرف من الذي يدبر الأمر.

ثم انظر إلى الغاية: (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ).

فالمشهد الكوني لا يريده القرآن مجرد مادة للدهشة الجمالية، وإنما جسراً إلى الآخرة. السماء ليست منظرًا فقط؛ إنها دليل. والشمس ليست مصباحًا كونيًا فحسب؛ إنها آية. والقمر ليس زينة للليل وحده؛ إنه شاهد.

وكان الكون كله يشير بإصبع خفي إلى موعد قادم: لقاء الله.

الفصل الثاني

أرض واحدة... وحيوات مختلفة

ثم تهبط بنا السورة من السماء إلى الأرض: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ
اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

جبال وأنهار.

ثمار وليل ونهار.

ثبات وحركة.

وكان الأرض نفسها مؤلفة من أضداد تتجاور في نظام عجيب.

الجبال واقفة، والأنهار تمضي.

والليل يأتي، والنهار يرحل.

والثمرة تنبت ثم تنضج ثم تنفئ، لتأتي من بعدها ثمرة أخرى.

إنها مدرسة صامته تعلم الإنسان أن الحياة ليست سكوناً؛ وإنما

تعاقب وتداول وانتقال.

لكن هذه الآيات الكونية لا تعطي أسرارها لكل عين: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

فليس كل من رأى أبصر.

قد تمر بالجبال ألف مرة ولا تحدثك الجبال بشيء. وقد تشاهد غروب الشمس كل مساء، ثم لا يغرب من غرورك شيء.

الفارق ليس في وجود الآية، بل في وجود القلب الذي يقرأها.

ثم تقترب الكاميرا القرآنية أكثر، حتى نرى قطع الأرض المتجاورة: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وهنا مشهد يستوقف الروح طويلاً.

أرض إلى جانب أرض.

وماء واحد.

ثم مذاقات مختلفة، وثمرات متفاوتة.

إنك أمام وحدة المصدر وتنوع الأثر.

الماء واحد، ولكن العنب ليس نخلاً، والنخل ليس زرعاً، والثمرات لا تتساوى في الطعم والصفة.

وهذا المعنى الكوني يوقظ في النفس تأملاً إنسانياً دون أن نحمله على أنه تفسير مباشر للآية: كم يتعرض البشر للمصدر نفسه ثم تختلف استجاباتهم! يسمعون الكلمة نفسها؛ فتلين بها نفس ويزداد بها آخر عناداً. يقرؤون القرآن نفسه؛ فيخرج أحدهم منه بقلب جديد، ويمر الآخر على آياته وكأن شيئاً لم يحدث.

ليست المشكلة دائماً في المطر.

أحياناً تكون في الأرض التي استقبلته.

الفصل الثالث

أعجب من الخلق الأول

بعد هذه السماوات، وهذه الأرض، وهذه الجبال والأنهار والثمار، ينتقل القرآن فجأة إلى شيء أشد غرابة: (وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

العجيب ليس البعث.

العجيب أن يستبعده الإنسان!

فمن أوجد المادة الأولى قادر على إعادتها.

ومن صنع الإنسان من العدم، أيعجز عن إعادته بعد أن يصير تراباً؟

إن مشكلة المنكر هنا ليست نقصاً في القدرة الإلهية، وإنما خلل في تصوره لها. إنه يقيس قدرة الخالق على خبرته البشرية المحدودة؛ فما صعب عليه تخيله جعله مستبعداً على الله.

وهذا واحد من منابع الضلال: أن نصنع لله — سبحانه — حدودًا من عجزنا نحن.

ثم يرينا القرآن المصير لا بوصفه فكرة فلسفية، وإنما حقيقة ثقيلة: (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ).

لقد عاشوا يريدون التحرر من حقيقة الآخرة، فإذا إنكار الآخرة ينتهي بهم إلى الأغلال.

وكم من إنسان يتوهم أن الإيمان قيد، فلا يكتشف إلا متأخرًا أن بعض ما سماه حرية لم يكن إلا طريقًا إلى عبودية أشد.

الفصل الرابع

الإنسان الذي يستعجل النار

ثم تكشف السورة مفارقة نفسية عجيبة: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ).

أي غرور هذا الذي يجعل المخلوق يتحدى بالعقوبة؟

بدل أن يطلب الرحمة يستعجل العذاب، وكأن تأخر العقوبة دليل على عدم وجودها.

وهذه آفة تتكرر في النفس البشرية: الخلط بين الإهمال والإهمال.

يمضي المخطئ في خطئه، ولا يرى العقوبة تنزل عليه في اللحظة نفسها، فيتوهم أن الطريق آمن.

ولا يدري أن بين الذنب والعقوبة أحياناً مساحة اسمها: المهلة.

لكن ما أبدع التوازن في ختام الآية!

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ).

سبحانه!

يظلمون، ومع ذلك يفتح لهم باب المغفرة.

يخطئون، فلا يغلق الباب من أول خطيئة.

تتعثر أقدامهم، ويبقى طريق الرجوع قائماً.

ولكن الرحمة لا تعني العتب: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ).

فلا اليأس من الله إيمان، ولا الأمن من عقابه إيمان.

القلب المؤمن يمشي إلى الله بجناحين: يرجو مغفرته، ويخشى عقابه.

الفصل الخامس

حين يطلب الإنسان آية... وهو محاط بالآيات

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ).

يا للمفارقة!

قبل قليل كانت السماوات.

وكانت الشمس.

وكان القمر.

وكانت الأرض.

وكانت الجبال.

وكانت الأنهار.

وكان الليل يطارد النهار.

وكان الماء الواحد يخرج ثمارًا مختلفة.

وبعد هذا كله يقول الإنسان: نريد آية!

ربما لم تكن المشكلة يوماً في قلة الأدلة؛ بل في الطريقة التي ينظر بها القلب إلى الأدلة.

فالإنسان إذا أغلق قلبه، قد يقف في متحف كامل من الآيات ثم يسأل: أين البرهان؟

والعناد لا يشبعه دليل؛ لأنه لا يبحث دائماً عن الحقيقة، بل يبحث أحياناً عن شرط جديد يؤجل به التسليم لها.

ومن هنا تعيد الآية وظيفة الرسول ﷺ إلى وضوحها: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ).

عليك البلاغ، أما فتح القلوب فليس بيد البشر.

وهذه راحة لكل صاحب رسالة صادقة: لا تحمل نفسك مسؤولية النتائج التي لم يجعلها الله إليك. ازرع بأمانة، وبلغ بصدق، وكن رحيماً بالناس؛ لكن لا تجعل استجابتهم أو إعراضهم مقياساً لقيمة الحق الذي تحمله.

وسوف تنتقلنا الآية التالية إلى مشهد آخر مذهل؛ من اتساع السماوات والأرض إلى الخفاء المحكم داخل الأرحام، ثم إلى عالم الغيب والشهادة، فالبرق والرعد والسحاب والصواعق، حتى نصل إلى قلب السورة ومثلها البديع في الماء والزبد.

وهناك ستبلغ الرحلة إحدى أجمل ذراها: كيف قد يملأ الباطل سطح المشهد كله، ثم لا يكون في ميزان الله إلا زبدًا ينتظر أن يذهب جفاء.

الفصل السادس

من خفاء الأرحام إلى هدير الرعد

بعد أن عرضت السورة مشهد السماوات المرفوعة، والأرض الممدودة، والجبال والأنهار والثمار، تنقلنا إلى عالم لا تراه العيون؛ إلى ذلك الموضع الخفي الذي تبدأ فيه رحلة الإنسان قبل أن يعرف أن له رحلة.

قال تعالى: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ).

في ظلمات الرحم، حيث لا تصل عين، ولا تسمع أذن، ولا يملك الجنين أن يعرف بنفسه، يكون علم الله محيطاً به.

يعلم ما تحمل كل أنثى، لا من البشر وحدهم، بل مما خلق وبث في هذا الوجود من دواب وطيور ومخلوقات لا يحصيها الإنسان. يعلم ما في الأرحام، وما تنقصه، وما تزيده، وما يطرأ عليه في أطواره وأحواله. لا تنتظر الأشياء أن تظهر حتى يعلمها؛ فعلمه سبحانه سابق لظهورها، محيط بسرّها وعلنها، بمبدئها ومنتهاها.

ثم تأتي الكلمة التي تعيد الطمأنينة إلى كل شيء مضطرب في النفس: (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ).

ليس في ملك الله شيء متروك للفوضى.

قطرة الماء بمقدار.

ونبضة القلب بمقدار.

ومدة الحمل بمقدار.

والرزق بمقدار.

والقوة بمقدار.

والابتلاء بمقدار.

والأجل بمقدار.

ولا يعني ذلك أن الإنسان يُعفى من السعي، بل يعني أنه يسعى وهو يعلم أن وراء الأسباب حكمة، وفوق التدابير البشرية تدبيرًا، وأن ما يجري في حياته لا ينفلت من علم الله وتقديره.

كم يرهق الإنسان نفسه حين يريد أن تأتي الأشياء كلها وفق مقداره هو! يريد الفرج في الساعة التي حددها، والرزق في الصورة التي رسمها، والنصر بالطريق التي تخيلها. فإذا خالف تقدير الله تصوره، ظن أن الأمور قد اختلت.

لكن الخلل ليس في قدر الله؛ بل في ضيق نافذة الإنسان.

إننا نقيس الحوادث بأعمارنا القصيرة، والله يضع كل شيء في موضعه ضمن علم لا تحده لحظة، وحكمة لا يحجب عنها غد.

قد يتأخر عنك ما تحب؛ لأن مواعده لم يكتمل.

وقد يُصرف عنك ما تريد؛ لأن الرحمة جاءت في صورة المنع.

وقد تدخل تجربة تظنها كسرًا، ثم تكتشف بعد زمن أنها أعادت بناءك على نحو لم تكن تستطيع الوصول إليه من طريق الراحة.

ليس كل تأخير حرمانًا، ولا كل منع عقوبة، ولا كل عطاء تكريمًا. والمعنى الذي يسند القلب وسط التباس الطريق هو : (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ).

ثم يقول سبحانه: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ).

نحن نعرف من الأشياء ظاهرها، والله يعلم ظاهرها وباطنها.

نعرف الكلمة حين تُقال، وهو يعلمها قبل أن تتحرك بها الشفتان.

نرى العمل، ويعلم النية التي دفعته.

نرى ابتسامة الوجه، ويعلم الحزن المختبئ خلفها.

نرى اجتماع الناس حول إنسان، ويعلم وحدته في قلبه.

ونرى رجلاً وحيداً لا يلتفت إليه أحد، ويعلم ما يحمل بين ضلوعه

من يقين قد يزن في ميزانه أكثر من ضجيج جماعات كثيرة.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)؛ فلا تستر الظلمة عنه سرّاً، ولا تخفي

الجدران وراءها فعلاً، ولا تستطيع الأقنعة الاجتماعية أن تحجب

حقيقة النفس عن علمه.

وقد يعيش الإنسان عمره كله وهو يصنع صورة لنفسه في عيون

الناس، حتى ينسى أن الله علماً لا تدخل إليه الصور المزيفة. قد

ينجح في إقناع الخلق بصلاحه أو قوته أو براءته، لكنه يقف أمام

علم الله مجرداً من كل ما صنعه لنفسه.

وهنا تتحرر النفس المؤمنة من عبودية المظاهر. فلا تغتر بمدح الناس؛ لأنهم لا يعلمون الغيب. ولا تتحطم بدمهم؛ لأنهم لا يملكون الحقيقة كاملة. وإنما تفتش عن منزلتها في علم من يعلم السر وأخفى.

ثم يختم الوصف باسمي الجلال: (الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ).

هو الكبير، وكل ما سواه صغير وإن توهم العظمة.

وهو المتعال، المنزه عن مشابهة خلقه، المتعالى عن النقائص، القاهر فوق عباده.

وحين يستقر في القلب أن الله هو الكبير، تصغر الأصنام التي يصنعها الخوف في داخله. يصغر صاحب القوة، ويصغر المتجبر، وتصغر الحشود، وتصغر الدنيا كلها؛ لا احتقاراً لما خلق الله، وإنما وضعاً لكل شيء في حجمه الحقيقي.

ثم تواصل الآيات الكشف عن إحاطة العلم الإلهي: (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

عند البشر فرق كبير بين الهمس والصوت المرتفع، وبين الليل والنهار، وبين من يختفي ومن يمشي ظاهرًا في الطريق. أما عند الله، فلا يصنع انخفاض الصوت حجابًا، ولا يجعل الظلام مستورًا، ولا يضيف الجهر إلى علمه شيئًا لم يكن يعلمه.

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ).

قبل أن يكون القول صوتًا، كان خاطرًا في النفس؛ والله يعلمه في طور الخاطر كما يعلمه بعد أن يصير كلامًا مسموعًا.

وهذه الآية تربي في القلب مقام المراقبة؛ تلك العبادة الباطنة التي تجعل الإنسان مستقيمًا حين يغيب الرقيب البشري، أمينًا حين يستطيع الخيانة، عفيفًا حين تتاح الخطيئة، صادقًا حين يمكن للكذبة أن تتجيه من حرج عاجل.

فالأخلاق التي لا تعمل إلا أمام الناس ليست أخلاقًا راسخة؛ إنها أداء اجتماعي مؤقت.

أما الإيمان فيبني في أعماق الإنسان عينًا بصيرة تذكره، حين يخلو، بأن الخلوة معصومة من نظر الخلق لا من علم الخالق.

وفي الآية عزاء كذلك للمظلوم الذي وقع عليه الأذى في مكان لم يره أحد، ولصاحب المعروف الذي صنع خيره خفية ولم يشكره بشر. فالسر الذي غاب عن العالم لم يغب عن الله.

ليس كل ما لم يشهده الناس ضائعاً.

ثمة أعمال لم تصفق لها يد، ودموع لم ترها عين، ومواقف نبلى لم تُكتب في سيرة، لكنها محفوظة في العلم الذي يستوي لديه السر والجهر.

ثم يقول الله تعالى: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ).

للإنسان ملائكة يتعاقبون عليه، يحفظونه بأمر الله وفق ما شاء سبحانه. إنه يمضي في حياته، وتحيط به من صور الحفظ والرعاية أشياء لا يدركها. كم من خطر مر بجواره ولم يشعر به! وكم من بلاء صُرف عنه فلم يعرف أنه كان قريباً! وكم من لحظة ظن أنه نجا فيها بذكائه وحده، بينما كانت وراء الأسباب رعاية لم يرها!

لكن الحفظ لا يجعل الإنسان خارج سلطان الله، ولا يمنع مجيء قضائه إذا جاء أمره. فالملائكة لا تستقل بالحفظ، وإنما تحفظ بأمره سبحانه.

ثم تنزل في قلب الآية تلك القاعدة العظيمة: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

إنها كلمة تهدم ثقافة الانتظار العاجز.

فالأمم لا تنهض بالأمنيات.

والمجتمعات لا تتطهر بالشعارات.

والإنسان لا ينتقل من حال إلى حال لمجرد أنه يشكو حاله.

لا بد أن يبدأ التغيير من الداخل: من الأفكار التي تسكن العقل، والقيم التي تحكم السلوك، والإرادات التي تحرك العمل، والعادات التي تتكرر حتى تصنع المصير.

والمعنى الذي قرره المفسرون في سياق الآية أن الله لا يغير ما يقوم من نعمة وعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة واستقامة إلى معصية وانحراف. وهو قانون يحمل في وجهه الآخر بابًا

للرجاء؛ فمن غيّر ما بنفسه من فساد، وأقبل على ربه، وأخذ بأسباب الإصلاح، كان جديرًا أن يفتح الله له باب التحول.

لكن ينبغي ألا تتحول الآية إلى كلمة سطحية يُلام بها كل مبتلى على بلائه؛ فليس كل من أصابه ألم قد استحقه بفساد في نفسه، والأنبياء أشد الناس بلاء. إنما الآية تقرر سنة في أحوال الأقوام وتبدل النعم، ولا تلغي أن الابتلاء قد يكون رفعًا للدرجات، أو تمحيصًا، أو لحكمة يعلمها الله.

والتأمل الأعظم هنا أن التغيير الخارجي الذي لا يسنده تغير داخلي يظل هشًّا. قد تتغير الوجوه وتبقى القيم نفسها. وقد تتبدل الشعارات ويظل الظلم قائمًا. وقد تُهدم صورة المستبد، بينما يبقى مستبد صغير مختبئًا في كل نفس.

إن الثورة الأصعب هي التي تخلع الباطل من داخل الإنسان.

أن يتغير تصويره عن القوة.

وعلاقته بالمال.

وموقفه من الضعفاء.

ومعياره في اختيار الرجال.

ومقدار صدقه حين تتعارض مصلحته مع المبدأ.

هنالك يبدأ التغيير الحقيقي؛ لأن الواقع في كثير من الأحيان ليس إلا أفكارًا باطنة اكتسبت أجسادًا ومؤسسات.

ثم يأتي الوجه الآخر من الحقيقة: (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ).

فلا القوة تردده، ولا الحصون، ولا المال، ولا الحلفاء، ولا الحيل السياسية. إذا جاء أمر الله سقطت الوسائط التي ظنها الإنسان مطلقة القدرة.

(وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)؛ فلا ناصر يستقل بحمايتهم من الله، ولا ملجأ يحول بينهم وبين قضائه.

وهذا لا يدعو إلى العجز، بل يحرر السعي من الوثنية الخفية؛ فتأخذ بالأسباب من غير أن تجعل منها آلهة، وتستند إلى القوة من غير أن تنسى مصدرها، وتخطط للمستقبل من غير أن تتوهم أنك قد أخطت به.

ثم ترفع السورة أعيننا مرة أخرى إلى السماء: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ
الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ).

ومضة واحدة في السماء تصنع في النفس شعورين متقابلين:
الخوف والطمع.

يخاف المسافر والصاحبُ الزرع الذي قد يضره المطر، ويطمع
فيه من أنهكه الجفاف وانتظر الماء. أو يخاف الناس الصواعق،
ويطمعون في الغيث. الظاهرة واحدة، لكن القلوب تستقبلها بحسب
مواقعها وحاجاتها.

وكان البرق صورة للحياة نفسها؛ فكثير من الأشياء التي تخيفنا
تحمل في طياتها الرجاء، وكثير مما نرجوه يجيء محفوفًا بالمهابة.

المطر الذي تحيا به الأرض قد يصير سيلاً.

والقوة التي تحمي قد تطغى.

والمال الذي يعين قد يفتن.

والابتلاء الذي يؤلم قد يطهر.

ولا ينضج قلب الإنسان حتى يتعلم أن العالم ليس ذا لون واحد، وأن الحكمة قد تمزج الخوف بالرجاء، والمنع بالعطاء، والرغبة بالبشارة.

(وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ).

تبدأ السحابة بخارًا لا تكاد تراه، ثم ينشئها الله حتى تثقل بالماء. وتسير في السماء حاملة أرزاق الأرض.

قرى تنتظرها.

وحقول ترفع إليها حاجتها.

وأبار جف مأواها.

وأنعام أضناها العطش.

وتحت ذلك السحاب ربما يقف طفل لا يعرف شيئًا عن قوانين التبخر والتكاثف، لكنه يرفع وجهه إلى السماء ويشم رائحة المطر. وبين رجائه ونزول القطرة تدبير إلهي هائل يسوق الماء من مكان إلى مكان.

كم تحمل السماء للإنسان من رزق، وهو لا يشعر!

وكم من نعمة كانت تتشكل بعيدًا عن عينيه، بينما كان يظن أن الله قد نسيه!

السحابة الثقيلة تقول للمنتظرين: ليس كل ما تأخر عنكم معدومًا؛ فقد يكون رزقكم في طريقه إليكم، يتكون في عالم لم تره أعينكم بعد.

ثم يبلغ المشهد ذروة الجلال: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ).

ذلك الصوت الذي يهز الفضاء ليس ضجيجًا بلا معنى: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ).

إن للكون عبادته التي قد لا نفهم كيفيتها، لكنه يؤديها كما أراد خالقه. الرعد يسبح، والملائكة تسبح من خيفته، وكل الوجود خاضع لربه؛ إلا أن الإنسان يستطيع أن يقف وسط هذا المحراب الكوني مجادلًا! وهذه هي المفارقة المزلزلة في الآية.

السماء تومض بالبرق.

والسحاب يمضي مثقلًا.

والرعد يهدير بالتسبيح.

والملائكة في خشية.

والصواعق تنطلق بأمر الله.

ثم يقف الإنسان الضعيف — الذي قد تنهي صاعقة واحدة حياته — يجادل في الله!

كأن السورة تضع ضالة الإنسان الجسدية إلى جوار ضخامة غروره، ليرى التناقض بنفسه.

إنه لا يملك أن يوقف قلبه إذا اضطرب.

ولا يرد عن جسده مرضًا إذا نزل.

ولا يأمر الغيم أن يمطر.

ولا يطلب من الصاعقة أن تغير طريقها.

ومع ذلك قد يتكلم عن الله بجرأة من لا يعرف حجمه.

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)؛ قوي لا يُغَالَب، شديد الحول والقوة والأخذ. فلا ينبغي أن يُفهم إمهاله على أنه عجز، ولا ستره على أنه غفلة، ولا تأخير العقوبة على أنه نجاة نهائية.

وفي هذا الختام تكتمل لوحة الفصل: بدأت بعلم الله لما تخفيه الأرحام، وانتهت بقوته التي تهز السماء. بين الخفاء الذي لا تدركه الأبصار والصوت الذي ترتج له الآذان، يبقى الله محيطاً بكل شيء علماً، مقدراً لكل شيء، مدبراً للأمر، لا يعجزه سر مستور، ولا قوة ظاهرة.

وما بين الجنين الصامت في ظلمة الرحم، والرعد الهادر في أفق السماء، تتردد حقيقة واحدة:

أن هذا الوجود كله في قبضة الله، وأن الإنسان لا يجد أمنه الحقيقي إلا حين يعرف قدر نفسه، ويعرف عظمة ربه.

الفصل السابع

أَكْفٌ مَمْدُودَةٌ إِلَى الْمَاءِ... وَلَا تَبْلُغُ مِنْهُ قَطْرَةً

بعد أن ملأت السورة الأفق بالبرق والرعد والسحاب والصواعق، عادت إلى الإنسان في أضعف حالاته وأصدقها: حال الدعاء.

فالدعاء يكشف حقيقة العقيدة المختبئة في القلب؛ لأن الإنسان حين تشتد حاجته لا يبحث عن فكرة يتأملها، بل عن قوة يلجأ إليها، وركن يأوي إليه، ورب يسمع نداءه ويملك أن يجيبه.

قال تعالى: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ).

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ).

دعاؤه وحده هو الدعاء القائم على الحقيقة؛ لأنه موجه إلى من يسمع الصوت، ويعلم السر، ويملك الخزان، ويكشف الضر، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

أما دعاء غيره، فهو تعلق العطشان بما لا يملك ماء.

وهنا ترسم الآية مشهدًا من أشد مشاهد القرآن بلاغة وإيلا مًا: إنسان عطشان يقف عند الماء، يبسط كفيه إليه، ويناديه ليبلغ فاه، لكنه لا يغرف منه ولا يتناوله، فيظل الماء في مكانه، ويظل فمه يابسًا، وتظل حاجته معلقة في الفراغ.

إنه قريب من الماء في الصورة، بعيد عنه في الحقيقة.

يبسط كفيه، ولكن الحركة وحدها لا تكفي.

يريد الارتواء، لكنه سلك إليه طريقًا لا يبلغه.

وهكذا من يدعو من دون الله: يملك هيئة الداعي، ولا يملك حقيقة الصلة بمن يجيب الدعاء. يكرر النداء، ويبذل الرجاء، ويعلق القلب، لكن المدعو لا يسمع سماع إجابة، ولا يملك له ضرًا ولا نفعًا.

(وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ).

يا لها من عبارة تختصر خيبة التعلق بغير الله!

ليس كل ما يمد الإنسان إليه يده يصل إليه.

وليس كل ما يعقد عليه رجاءه قادرًا على إنقاذه.

فقد يعلق قلبه بإنسان، أو نفوذ، أو مال، أو جماعة، أو مكانة؛ حتى يظن أن نجاته مودعة فيها. ثم تأتي لحظة الحقيقة، فإذا ما عظمه عاجز عن إنقاذ نفسه، فضلاً عن إنقاذه.

ولا تعني الآية ترك الأسباب أو الاستغناء عن عون البشر فيما يقدر عليهم؛ فالأخذ بالأسباب من سنن الله. لكنها تحرر القلب من تأليه الوسائط. نطرق أبواب الخلق فيما يملكون، لكننا لا نودع فيهم رجاء العبادة، ولا نعتقد أنهم يستقلون بالعطاء والمنع.

فالطبيب سبب، والشفاء من الله.

والعمل سبب، والرزق من الله.

والصديق سبب في المواساة، وسكينة القلب من الله.

والقوة سبب في الحماية، والحافظ هو الله.

وحين تستقيم هذه الموازين، تستخدم اليد الأسباب، ويبقى القلب متعلقاً برب الأسباب.

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)؛ يضل عن غايته كما يضل المسافر طريقه، فلا ينتهي إلى إجابة، لأن الدعاء وُجِّه إلى من لا يملكه.

إن ضلال العقيدة ليس فكرة ذهنية معزولة؛ إنه ضياع للرجاء
نفسه، ووضع لأعمق حاجات القلب عند أبواب لا تفتح.

الفصل الثامن

سجود الكون... وظلال لا تعرف العصيان

ثم توسع السورة مشهد الخضوع، فلا يبقى التسبيح للرعْد والملائكة وحدهم، بل يدخل الوجود كله في محراب السجود: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ).

كل ما في السماوات والأرض خاضع لله.

منهم من يخضع طائعاً مؤمناً، محبباً لربه، ساجداً بقلبه وجوارحه.

ومنهم من يخضع لقهر الله وسلطانه وإن أبى الإيمان؛ فلا يستطيع أن يخرج من ملكه، أو يتجاوز سننه، أو يرد عن نفسه الموت، أو يكتب لنفسه أجلاً جديداً.

قد يتمرّد الإنسان على الأمر الشرعي، لكنه لا يستطيع التمرد على السلطان الكوني.

يستطيع ألا يسجد بجهته، لكنه لا يستطيع أن يمنع جسده من الشيوخوخة.

يستطيع أن ينكر البعث بلسانه، لكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الموت.

يستطيع أن يقول: أنا حر حرية مطلقة، ثم يهزمه النعاس، ويصرعه المرض، ويقوده الجوع، ويوقف قلبه أجل لا يستأذنه.

إنه يملك مساحة للاختيار هي موضع ابتلائه، لكنه لا يخرج لحظة واحدة عن ملك الله.

ثم تأتي الصورة العجيبة: (وَضَلَّالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ).

حتى الظلال ساجدة!

حين تمتد في أول النهار وآخره، تتحرك وفق القانون الذي وضعه الله، فلا تتقدم عن مواعدها، ولا تختار جهة غير التي قُدرت لها.

قد يتكبر صاحب الظل، لكن ظله لا يعرف الكبير.

قد يرفع رأسه عن السجود، بينما يمتد ظله على الأرض خاضعًا.

وقد يجادل الإنسان في ربه، فيما جسده وظله والذرات التي يتكون منها كلها تشهد بأنه مخلوق محكوم.

إنها صورة تكاد تخلع عن الغرور ثيابه: الإنسان يتوهم الاستقلال، وظله الملتصق به يعلن عجزه كل صباح ومساء.

وفي الآية دعوة لطيفة إلى أن ينسجم الإنسان باختياره مع الوجود الخاضع بفطرته. ما أقسى أن يكون كل ما حولك ساجدًا، ويبقى قلبك وحده شاردًا عن المحراب!

الشمس تجري بأمره.

والسحاب يتحرك بأمره.

والنبات يشق التراب بأمره.

والظل يمتد بأمره.

فلماذا يبقى الإنسان ممزقًا بين فطرته التي تعرف الله، وهوى يريد أن يفِر من عبادته؟

السجود ليس إذلالًا للإنسان؛ بل تحرير له من السجود لما هو أدنى منه. فمن لم يضع جبهته لله، وضع قلبه — في الغالب — عند أقدام أشياء كثيرة: رغباته، وخوفه، وصورة الناس عنه، وشهوته إلى المال والمكانة ومن سجد لله حقًا، نهض من سجوده حرًّا.

الفصل التاسع

هل يستوي خالق السماوات وآلهة لا تخلق شيئاً؟

قال تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

السؤال واضح: (مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)؟

والجواب أوضح: (قُلِ اللَّهُ).

لكن المشكلة ليست دائماً في الجواب الذي ينطق به اللسان؛ فقد يقر الإنسان بأن الله هو الخالق، ثم يوزع خوفه ورجاءه وولاءه على غيره، كأن إقرار العقل لم يصل بعد إلى القلب.

ولهذا يأتي السؤال الكاشف: (أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)؟

كيف يُتخذ العاجز ولياً من دون القادر؟

وكيف يعلق القلب رجاءه بمن لا يملك لنفسه ما يرجوه الآخرون منه؟

إن المخلوقات جميعًا تقف على أرض الافتقار نفسها. قد يملك إنسان من المال والقوة أكثر مما تملك، لكنه لا يملك نفسه استقلالاً عن الله. قد يبدو قادرًا على فتح أبواب أو إغلاقها، ولكنه في حقيقته عبد تجري عليه الأقدار كما تجري عليك.

وقد يملك لك نفعًا محدودًا أقدره الله عليه؛ لكنه لا يملك أن يجعل هذا النفع واقعًا إذا لم يأذن الله، ولا أن يدفع عن نفسه كل ضرر.

حين يعرف القلب هذه الحقيقة، لا يحتقر الناس، ولا يجحد فضلهم، لكنه يكف عن عبادتهم بالخوف والطمع.

ثم تضرب الآية أمثالًا لا تحتل الالتباس: (هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)؟

ليس العمى هنا مجرد فقد البصر الحسي؛ بل صورة لمن لم يبصر آيات الحق، كما أن البصير هو من رأى الطريق وعرف وجهته.

قد تكون العينان مفتوحتين، والقلب في ظلمة.

وقد يفقد المرء بصره، ويكون في داخله نور يرى به ما لا يراه المبصرون.

والبصيرة ليست كثرة المعلومات؛ فرب عالم بأسرار المادة جاهل بسر وجوده. يعرف المسافات بين النجوم، ولا يعرف الطريق إلى خالق النجوم. يحسن تحليل الضوء، ويعيش قلبه في الظلمات.

(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ)؟

جاءت الظلمات جمعًا، وجاء النور مفردًا؛ لأن طرق الضلال متشعبة، أما الحق فطريقه واحد. لكل هوى ظلمته، ولكل شبهة ظلمة، ولكل معبود باطل ظلمة؛ أما النور الذي يأتي من الله فيجمع القلب بعد تفرقه، ويهديه إلى الصراط المستقيم.

ثم يهدم القرآن أصل الشرك بسؤال حاسم: (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)؟

هل خلق هؤلاء الشركاء المزعمون شيئًا يشبه خلق الله حتى التبس الأمر على الناس، فلم يعرفوا مَنْ الخالق؟

كلا.

ليس هناك خلقان تشابها، ولا قوتان تنازعتا صنع العالم. إنما هو خلق واحد يشهد لخالق واحد: (قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ).

كل شيء سواه مخلوق.

وكل قوة سواه ممنوحة.

وكل حياة سواه حادثة.

وكل بقاء سواه مؤقت.

ثم يأتي الاسمان اللذان يحسمان القضية: (وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، لا شريك له.

قهار يخضع له كل شيء، فلا ينازعه أحد في ملكه، ولا يقع في كونه إلا ما شاء.

إن وحدانية الله ليست معلومة عقديّة باردة، بل راحة عميقة للقلب؛ فالكون ليس موزعاً بين إرادات متصارعة، والإنسان لا يحتاج إلى استرضاء آلهة متعددة، ولا إلى تمزيق قلبه بين أرباب شتى.

له رب واحد.

وباب واحد.

وقبلة واحدة للرجاء.

وحين يتوحد معبوده، يتوحد قلبه.

الفصل العاشر

ماء السماء وزبد الحياة

ثم تضرب سورة الرعد مثلها الخالد للحق والباطل: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ).

إنها لوحة تتحرك أمام العين.

ماء ينزل من السماء.

أودية تستقبله.

سيل يجري.

زبد يرتفع على سطحه.

ثم لا يلبث أن يختفي، فيما يبقى الماء حيًّا في الأرض، يروي العطاش، ويسقي الزرع، ويوقظ البذور النائمة تحت التراب.

قال تعالى : (فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا).

لكل واد سعته.

فمن الأودية ما يحمل ماء كثيرًا، ومنها ما لا يحمل إلا القليل، بحسب اتساعه وضيق مجراه. وقد رأى المفسرون في المثل تصويرًا لما تحمله القلوب من الهدى والعلم؛ فالوحي نازل من عند الله، لكن القلوب تتلقاه بحسب استعدادها وسعتها.

إن ماء السماء واحد، والأوعية مختلفة.

وقد تسمع النفوس الآية نفسها؛ فتفتح في إحداها واديًا من الدموع واليقين، ولا تحرك في أخرى سوى حروف تمر على اللسان.

فليست القضية أن ينزل المطر فحسب، بل أن يكون في داخلك واد يتسع له.

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا).

الزبد مرتفع، ظاهر، منتفخ، يملأ سطح الماء حتى قد يتوهم الناظر أنه هو السيل.

وهكذا الباطل: يحب السطح.

يرتفع بالصخب.

ويملاً العيون.

وينتفخ بالأعداد والشعارات.

وقد يحجب الماء النافع لحظة، لكنه لا يتحول إلى ماء.

ارتفاعه لا يمنحه قيمة.

وضحيجه لا يصنع له حقيقة.

وانتشاره على السطح لا يعني أن له جذورًا في الأرض.

إن من أخطر أخطاء الإنسان أن يقيس الأشياء بمقدار ظهورها.

يرى الباطل عاليًا فيحسبه باقياً، ويرى الحق هادئاً فيحسبه ضعيفاً.

تنبهر عينه بالزبد؛ لأنه فوق، وتغفل عن الماء؛ لأنه تحته.

لكن الزمن يكشف حقيقة الاثنين.

فالزبد يحمل في تكوينه سبب فناءه؛ لأنه خواء منتفخ.

والماء يحمل سر بقاءه؛ لأنه نفع وحياة.

ثم تنتقل الآية إلى النار: (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ).

حين يصهر الناس المعادن ليصنعوا منها الحلي أو الأدوات، يطفو عليها خبث يشبه زبد السيل. لا بد من النار حتى ينفصل المعدن الخالص عن شوائبه.

وكان الحق يُمتحن بالماء مرة وبالنار مرة، لكنه يبقى في الحالتين. أما الباطل فيظهر فوق السطح ثم يطرح.

وهكذا تفعل الابتلاءات بالناس والمبادئ؛ إنها نار تكشف المعدن. قبل الامتحان تتشابه الكلمات، ويتجاوز الصادق والمدعي، ويستطيع كل إنسان أن يرتدي هيئة الثبات. فإذا اشتعلت نار التكلفة، خرج الخبث، وبقي ما ينفع.

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً).

لا يحتاج الماء إلى معركة أبدية مع الزبد.

يمضي السيل في طريقه، ثم يُقذف الزبد على الجوانب شيئاً لا وزن له.

وكم من باطل ملأ زمنه حتى ظن أهله أن التاريخ انتهى عند أقدامهم! أين الذين صنعوا لأنفسهم هالات الخلود؟ أين الأصوات التي لم تكن تسمح لصوت غيرها أن يُسمع؟ أين رايات الظلم التي حجبت الأفق زمناً؟

ذهب الزبد.

وبقيت الحقائق التي حاول أن يغطيها.

غير أن بقاء الحق لا يعفي أهله من نصرته؛ فإله يبتلي بهم ويقيم الحجة بأعمالهم. لكن الآية تحررهم من الانخداع بمظهر الباطل. لا تجعلوا ارتفاع الزبد برهاناً على قوته، ولا تأخر زواله دليلاً على خلوده.

(وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ).

هذا هو ميزان القرآن: **النفع والبقاء**، لا الانتفاخ والظهور.

يبقى الماء؛ لأنه يمنح الحياة.

ويبقى المعدن الخالص؛ لأنه يصنع زينة أو متاعاً.

ويبقى العلم الصادق؛ لأنه يهدي.

ويبقى العمل الصالح؛ لأنه يعمر.

ويبقى الإنسان في ذاكرة القلوب بمقدار ما ترك فيها من نفع، لا بمقدار ما جمع حول اسمه من ضجيج.

إن الأشياء النافعة قد تكون هادئة. لا تملك دائماً بريق الزبد، لكنها تدخل في بنية الحياة. الماء لا يعلن كل صباح أنه سر الزرع؛ يكفي أنه يتسلل إلى الجذور، ثم تراه في اخضرار الأوراق.

وهكذا الكلمة الصادقة: قد لا يصفق لها الناس يوم قيلت، لكنها تدخل قلباً، ثم تنمو فيه سنوات، ثم تثمر موقفاً نبيلاً لم يشهد قائله ميلاده.

وهكذا التربية الصالحة.

وهكذا المعروف الخفي.

وهكذا الكتاب الذي يحمل معنى صادقاً؛ ربما لم يصنع ضجة عابرة، لكنه يجد قارئه بعد زمن، فيقيم في روحه حياة جديدة.

لا تسأل فقط: كم شخصاً رأيته؟

اسأل: ماذا أبقيت في الأرض؟

ولا تسأل: كم ارتفع صوتي؟

اسأل: كم حمل صوتي من ماء؟

فالقيمة في منطق الوحي ليست أن تطفو؛ بل أن تنفع.

الفصل الحادي عشر

الحسنى لمن أجاب... والفداء المستحيل لمن أعرض

بعد أن بيّنت السورة الفرق بين الحق الباقي والباطل الزائل، بيّنت مصير من استجاب للحق ومصير من أعرض عنه: (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ).

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَى).

لم تقل الآية: للذين سمعوا، بل : (اسْتَجَابُوا).

فكم من سامع لم يستجب!

الاستجابة هي أن تتحول المعرفة إلى حركة، والآية إلى موقف، والإيمان إلى سلوك. أن يناديك الله فتجيبه بقلبك وجوارحك، لا أن يبقى نداؤه معلومة مؤجلة في ذاكرتك.

والاستجابة لله ليست خسارة للحياة، كما يصورها الهوى؛ بل لها الحسنَى: العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأعظمها الجنة ورضوان الله.

قد تكلفك الاستجابة شهوة عاجلة، أو مصلحة محرمة، أو رضا أشخاص؛ لكنها لا تأخذ منك شيئاً إلا لتعطيك ما هو أطهر وأبقى.

وفي الجهة الأخرى يقف الذين لم يستجيبوا، وقد انكشفت لهم قيمة ما ضيعوا: (لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ).

كل ما في الأرض!

ومثله معه!

قصور العالم وثرواته، ذهبه ومناجمه، مدنه ومزارعه، نفوذه وسلطانه؛ كل ذلك يصير عند ظهور الحقيقة قليلاً، يتمنى صاحبه لو يقدمه فداءً من العذاب.

لكن أين كان هذا الإدراك حين كان يبيع الحق بشيء ضئيل من الدنيا؟

كان يستطيع في الحياة أن ينجو بتوبة صادقة، وبدمعة ندم، وبعودة خالصة إلى الله. فلما انتهى زمن العمل، صار مستعدًا أن يبذل الأرض كلها، ولا يقبل منه.

ما أرخص النجاة حين يكون باب التوبة مفتوحًا!

وما أغلاها حين يغلق الباب!

إن الإنسان قد يبخل اليوم بصلاة، أو اعتذار، أو رد مظلمة، أو ترك مال حرام، ثم يأتي عليه وقت يتمنى فيه لو يفندي نفسه بملء الأرض.

(أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ)؛ حساب يناقشون فيه على أعمالهم، ولا يجدون من حسن الاستجابة ما ينجيهم.

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ).

والمهاد ما يُمهّد للاستقرار والراحة، لكن جهنم ببئس المهاد؛ لا راحة فيها ولا أمن. وفي التعبير مفارقة موجعة: طلبوا في الدنيا فراش الشهوة والراحة، حتى انتهوا إلى قرار لا راحة فيه.

وهكذا تختتم الآية المقارنة التي بدأها مثل الماء والزبد:

من استجاب للحق، فله الحسنی وإن شق عليه الطريق لحظة.

ومن اختار الزبد، فقد يراه مرتفعاً زمنًا، ثم يكتشف عند الحساب أنه لم يحمل معه شيئاً ينفع، وأن الدنيا كلها — لو ملكها مرتين — لا تستطيع أن تشتري له فرصة أخرى.

الفصل الثاني عشر

من يبصر الوحي... ومن يعيش أعمى إلى جوار النور

بعد أن ضربت السورة مثل الحق والباطل، وبيّنت عاقبة المستجيبين والمعرضين، تسأل سؤالاً يفصل بين نوعين من البشر: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ).

ليس الفرق بينهما فرقاً في كمية المعلومات فحسب، بل فرق بين بصيرة وعمى.

فالأول يعلم أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ هو الحق. لم يعد الوحي عنده احتمالاً بين احتمالات، ولا رأياً يزاحم آراء البشر، بل صار الميزان الذي يزن به الأشياء، والنور الذي يقرأ به الطريق.

أما الآخر، فلم تقل الآية: كمن لا يعلم، بل قالت: (كَمَنْ هُوَ أَعْمَى).

لأن الجهل بالوحي بعد ظهور دلالة ليس فراغاً معرفياً فحسب، بل عجز عن رؤية الحقيقة التي تمنح بقية الأشياء معانيها الصحيحة.

قد يحمل الإنسان شهادات كثيرة، ويقرأ آلاف الصفحات، ويعرف دقائق في السياسة والاقتصاد والاجتماع، ثم يبقى أعمى عن السؤال الأكبر: مَنْ خلقه؟ ولماذا خُلِق؟ وإلى أين يمضي؟ وما الميزان الذي يفرق به بين الخير والشر حين تتقلب أهواء المجتمعات؟

العلم الذي لا يهدي الإنسان إلى غاية وجوده قد يمنحه أدوات متطورة، لكنه لا يمنحه بالضرورة وجهة صحيحة. وقد يزيده قدرة على السير، بينما يتركه حائرًا: إلى أين يسير؟

والأعمى إذا أسرع الخطى لم يقترب بالضرورة من غايته؛ ربما أسرع إلى هاوية لا يراها.

إن الوحي لا يعادي العقل، بل ينقذه من أن يدور داخل حدوده المغلقة. يمنحه ما لا يستطيع الوصول إليه بالتجربة المجردة: خبر البداية والنهاية، وحقيقة الآخرة، ومراد الخالق، وموازن الغيب.

ثم تقول الآية: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ).

الألباب جمع لُب، وهو العقل الخالص من شوائب الهوى والغفلة. فليس كل من امتلك عقلاً استعمله في الوصول إلى الحق؛ قد يتحول العقل إلى محام بارع عن الشهوة، يصنع لها الحجج، ويزين لها الانحراف.

العقل الذي يذكره القرآن بإجلال ليس عقل المكر والجدل، بل العقل الذي يخلص من القشور، وينفذ إلى لب الحقيقة، ويتواضع أمام البرهان.

وأولو الألباب لا تمر بهم الآيات مرور الأصوات؛ إنهم يتذكرون. كأن الحق كان مودعاً في الفطرة، فجاء الوحي يزيل عنه غبار النسيان.

الفصل الثالث عشر

الذين لا يبيعون عهد الله

ثم تبدأ السورة في رسم ملامح أولي الأبواب، فلا تقدم تعريفاً نظرياً للعقلاء، بل تعرض أخلاقهم وأعمالهم: (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ).

أول علامة للعقل الصادق هي الوفاء.

وهذا عجيب في زمن تُقاس فيه العقول بسرعة الحيلة، والقدرة على المناورة، والخروج من الالتزامات بأقل خسارة. أما القرآن فيربط العقل بالوفاء؛ لأن العاقل حقاً يدرك أن الكلمة مسؤولية، وأن العهد ليس صوتاً ينتهي بانتهاء المجلس، بل ديناً في العنق.

وعهد الله يشمل ما عهده إلى عباده من الإيمان به وطاعته، والوفاء بما التزموه من مواعيق مشروعة. فلا يعلنون الإيمان ثم ينقضونه في المواقف، ولا يجعلون التدين كلمات بينما تسير مصالحهم في طريق آخر.

(وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ).

النقض يوحى بشيء كان محكمًا ثم فُككت عراه خيطًا خيطًا. وهكذا يبدأ انهيار الإنسان والمجتمع؛ لا يسقط الميثاق دائمًا بضربة واحدة، بل بتنازلات صغيرة:

وعد يتأخر صاحبه عن الوفاء به ولا يبالي.

أمانة يُنتقص منها قليلًا.

مبدأ يُستثنى منه الصديق والقريب.

حق يُؤجل لأن صاحبه ضعيف.

ثم تتسع الشقوق حتى يصبح نقض العهود عادة، ويُسمى الغدر ذكاء، والتلون مرونة، وبيع المواقف واقعية.

إن المجتمع لا يعيش بالقوانين وحدها؛ بل بالثقة التي تجعل الناس يصدق بعضهم بعضًا. فإذا مات الوفاء، اضطر كل إنسان أن يعيش خلف جدار من الشك، وأن يتعامل مع كل كلمة كأنها فخ محتمل.

وأولو الألباب يعرفون أن العهد مع الله يظل حاضرًا حين يغيب البشر. فإذا وعدوا لم يجعلوا الوفاء تابعًا لمقدار الربح؛ لأنهم لا يتعاملون مع الإنسان وحده، بل مع الله الذي شهد عهدهم.

الفصل الرابع عشر

صلوات أمر الله أن تبقى

قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ).

الإيمان في القرآن لا يبني إنساناً مقطوعاً عن الآخرين، وإنما يعلمه فن الوصل.

وأولى هذه الصلوات صلة الرحم، ويدخل في عموم المعنى كل ما أمر الله بوصله من حقوق وعلائق مشروعة: صلة الإيمان، والقربة، والإحسان، والوفاء، والعدل.

إن الشر كثيراً ما يبدأ بعملية قطع.

يقطع الإنسان صلته بربه، ثم يسهل عليه أن يقطع رحمه.

يقطع المعرفة عن الأخلاق، فتصير المعرفة أداة بلا ضمير.

يقطع العبادة عن المعاملة، فيحسن الوقوف في المحراب ويسيء السير بين الناس.

يقطع المصلحة عن الحق، فلا يعود يسأل: أهذا عدل؟ بل يسأل فقط: ماذا سأربح؟

أما أولو الألباب فيجمعون ما يريد الهوى تفريقه. يصلون العبادة بالأخلاق، والعقيدة بالرحمة، والقرابة بالإحسان، والقوة بالعدل، والعلم بالعمل.

ولم تقل الآية: يصلون من يصلهم فقط، بل قالت: (يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ).

فمصدر الوصل هو أمر الله، لا مجرد رد الفعل. يصلون لأن الله يحب الوصل، حتى إن واجههم من القريب جفاء، أو من الصديق فتور، أو من المجتمع نكران.

ولا يعني الوصل إقرار الظلم أو تمكين المؤذي من النفس؛ فقد يحتاج الإنسان إلى وضع حدود تحميه من الأذى، مع بقاء ما يستطيع من الحق والإحسان وعدم الظلم. فالشرعية لا تأمر بأن يسلم المرء نفسه للعدوان، وإنما تأمره ألا يجعل جراحه مبررًا ليصير ظالمًا.

ثم تكشف الآية عن القوة الباطنة التي تحمي هذه الصلات: (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ).

فَالْخَشْيَةُ تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ مَزَاجَهُ سَيِّدًا عَلَى حَقُوقِ
الْآخَرِينَ. قَدْ يَغْضَبُ، لَكِنَّهُ يَتَذَكَّرُ اللَّهَ. وَقَدْ يَقْدِرُ عَلَى الْقَطِيعَةِ
وَالْإِنْتِقَامِ، لَكِنَّهُ يَخْشَى أَنْ يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ مُحْمَلًا بِحَقُوقِ الْعِبَادِ.

(وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ).

إِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ وَفِي دَاخِلِهِمْ يَوْمَ آخِرٍ.

لَا يَرُونَ الْمَوْقِفَ مِنْ حُدُودِهِ الْعَاجِلَةِ وَحَدِّهَا، بَلْ يَرُونَ خَلْفَهُ حِسَابًا.
وَحُضُورَ الْحِسَابِ فِي الضَّمِيرِ لَا يَصْنَعُ إِنْسَانًا مَشْلُوعًا بِالْخَوْفِ؛
بَلْ يَصْنَعُ إِنْسَانًا دَقِيقًا فِي الْعَدْلِ، حَذَرًا مِنْ أَنْ يَبْنِيَ رَاحَتَهُ فَوْقَ وَجَعِ
أَحَدٍ، أَوْ يَصْنَعُ مَجْدَهُ مِنْ حَقُوقِ الضَّعْفَاءِ.

مَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ، لَمْ تَعُدْ الْخُلُوعُ فُرْصَةً لِلْخِيَانَةِ، وَلَا السُّلْطَةُ
رَخْصَةً لِلظُّلْمِ، وَلَا الْقَرَابَةُ مَبْرَرًا لِلْمَحَابَاةِ.

الفصل الخامس عشر

الصبر الذي يريد وجه الله

قال تعالى: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ).

لم تمدح الآية مجرد الصبر؛ لأن الناس قد يصبرون لأسباب كثيرة.

قد يصبر الإنسان انتظارًا للانتقام.

وقد يصبر حفاظًا على صورته أمام الناس.

وقد يصبر لأنه عاجز عن التغيير.

وقد يتحمل الألم حتى يقال: ما أشد قوته!

أما هؤلاء فقد صبروا: (ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ).

وهذه النية تنقل الصبر من قسر نفسي إلى عبادة.

إنهم لا يحبون الألم لذاته، ولا يتصنعون عدم الوجد. قد يكون، ويتعبون، وتضيق صدورهم؛ لكنهم لا يتركون الطاعة، ولا ينقلبون على الحق، ولا يبيعون مبادئهم ليخرجوا من الضيق.

الصبر ليس ألا تشعر بالألم؛ بل ألا يسمح الألم لنفسه بأن يقودك إلى ما لا يرضي الله.

وما أشق الصبر حين يطول الطريق، ولا يرى الإنسان ثمرة ثباته! حين يزرع ولا يحصد، ويخلص ولا يفهم، ويصنع المعروف ثم يُقابل بالجحود. هنالك لا يبقى له ما يسنده إلا هذه الغاية العالية: (ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ).

فإذا كان الله غايته، لم يعد ضياع التقدير البشري ضياعاً للعمل.

وإذا كان الله يعلم، لم يعد نسيان الناس هو النهاية.

ثم يأتي بعد الصبر : (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ).

لم يقل: أدوا الصلاة فحسب؛ بل أقاموها. جعلوها قائمة في حياتهم، تقيم ما مال من نفوسهم، وتردهم إلى مركزهم كلما بعثرتهم الدنيا.

الصلاة ليست فاصلة خارج الحياة؛ إنها عودة متكررة إلى الحقيقة.

حين تكبر الدنيا في العين، نقول: الله أكبر.

وحين يعلو الرأس بالغرور، نضع الجبهة على التراب.

وحين تتفرق النفس بين المخاوف، نقف بين يدي الواحد.

ولهذا تجاور الصبر والصلاة؛ لأن الطريق الطويل يحتاج إلى مورد متجدد للقوة. ومن حاول أن يصبر بعيداً عن الله استنفد مخزونه النفسي، أما من كان يعود إليه في صلاته، فإنه يستمد من معين لا ينفد.

ثم يقول سبحانه: (وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً).

ردت الآية المال إلى مصدره قبل أن تأمر بإنفاقه: (مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ).

فهو في يدك، لكنه من رزق الله.

وأنت مستخلف فيه، لا خالق له.

وحين يرى الإنسان المال بهذه العين، يسهل عليه أن يخرج به؛ لأنه لا يتوهم أن العطاء يمزق جزءاً من ذاته، بل يرد بعض فضل الله إلى عباد الله.

وينفقون سرًّا حيث يكون السر أقرب إلى الإخلاص وأستر للمحتاج، وينفقون علانية حين تكون العلانية مشروعة وفيها قدوة وتحريض على الخير، من غير رياء ولا منّ.

إنهم يملكون المال، لكن المال لا يملكهم.

ينزل إلى أيديهم، ولا يصعد إلى قلوبهم.

ثم ترتفع الأخلاق إلى مقام مدهش: (وَيَذَرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ).

يدفعون السيئة بالحسنة، ويقابلون الشر بما يوقف امتداده، ويمحون أثر الذنب بالتوبة والعمل الصالح، ويدفعون إساءة الناس بما هو أحسن حيث كان ذلك موضعًا للإصلاح.

ليس المقصود أن يصبح المؤمن مستباح الكرامة أو عونًا للظالم على ظلمه، فالعدل مشروع ودفع العدوان حق. لكن المقصود ألا يكون الشر قادرًا على نسخ أخلاقه.

فأخطر ما يفعله بك المسيء ليس أن يؤلمك؛ بل أن يحولك إلى نسخة منه.

إذا دفعك الكاذب إلى الكذب، فقد هزمك مرتين.

وإذا دفعك الظالم إلى الظلم، فقد نقل عدواه إلى روحك.

وإذا جعلك الحاقد حاقداً، فقد احتل من داخلك مساحة أكبر مما أخذ منك في الخارج.

أما أولو الألباب فيملكون قوة أخلاقية تمنع الإساءة من إعادة تشكيلهم. قد يردونها بالعدل، وقد يعفون حين يكون العفو أصلح، لكنهم لا يسمحون لها أن تخلع عنهم إيمانهم.

(أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ).

العاقبة لهم، وإن بدا الطريق طويلاً.

قد يخسر الصابر جولة عابرة.

وقد يتقدم الزبد على سطح المشهد.

وقد يُساء فهم صاحب الخلق.

لكن القرآن لا يقيس الحقيقة بلحظة؛ بل بالعاقبة.

وما قيمة طريق يضحك المرء في أوله ثم يبكي عند نهايته؟ وما ضرر طريق مؤلم الخطوات إذا كان ينتهي إلى رضوان الله؟

الفصل السادس عشر

أبواب الجنة ولقاء الأحبة

ثم تكشف السورة عن عقبي الدار: (جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ).

ليست الجنة في هذه الآية فردوساً فردياً موحشاً، بل دار اجتماع بمن صلح من الأحبة.

آباء.

وأزواج.

وذريات.

كأن النعيم لا يكتمل بمجرد المكان الجميل؛ لأن القلب يريد الذين أحبه فيهِ.

كم فرّق الموت بين أيّد كانت متشابكة!

وكم تركت القبور مقاعد فارغة في البيوت!

وكم وقف إنسان بعد رحيل أحبته يتأمل أشياءهم، فلا يجد لهم إلا
أثرًا ورائحة وذكرى!

تأتي هذه الآية لتفتح في جدار الفقد نافذة: إن الصلاح قد يجمع ما
فرقته القبور. ليست كل يد أفلتها الموت مفقودة إلى الأبد، ولا كل
وجه غاب عن العين قد انتهت قصته.

هناك دار لا يدخلها الفناء، ويمكن للأحبة الصالحين أن يلتقوا فيها
بلا خوف من فراق جديد.

لكن الآية قيدت الاجتماع بالصلاح: (وَمَنْ صَلَحَ)؛ فالأنساب
وحدها لا تفتح أبواب الجنة، وإنما الإيمان والعمل الصالح. ليست
القربة بديلًا عن المسؤولية، لكنها إذا اقترنت بالصلاح صارت
نعيمًا يتجدد في الآخرة.

ثم يأتي مشهد الملائكة: (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ).

في الدنيا كانت الأبواب قد تحمل خبرًا مؤلمًا، أو زائرًا يذكر
بحاجة، أو خوفًا يطرق القلب. أما هناك، فمن كل باب تدخل
الملائكة بالبشارة والتكريم.

لا بابًا واحدًا للطمانينة، بل أبوابًا تحيط بهم.

ثم تقول الملائكة: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ).

سلام على القلوب التي تعبت ولم ترتد.

سلام على العيون التي بكت ولم تياس.

سلام على الذين قاوموا شهواتهم في الخلوات.

سلام على المظلومين الذين منعهم إيمانهم من أن يصيروا ظالمين.

سلام على من ثبت حين باع الآخرون.

سلام على من واصل السير إلى الله، ولو سار وحيداً.

(بِمَا صَبَرْتُمْ).

كان أعوام التعب كلها تنضغط في هذه الكلمة، ثم تنفتح منها الجنة.

هناك يفهم الصابر لماذا كان عليه أن يصبر.

وهناك يرى أن كل مرة حبس فيها نفسه عن الحرام كانت تبني له

موضعاً في دار السلام.

وأن كل ألم تحمله لله لم يضع.

وَأَنَّ اللَّيَالِي الَّتِي ظَنُّهَا بَلَا نَهَايَةَ قَدْ انْتَهَتْ فَعَلًّا، أَمَا مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ
فَلَا يَنْتَهِي.

إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يُقَالُ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا لَمْ تَتَّأَلَمُوا؛ بَلْ: (بِمَا
صَبَرْتُمْ). فَقَدْ عَرَفُوا الْأَلَمَ، وَلَكِنْهُمْ عَبَرُوا بِهِ إِلَى اللَّهِ.

وَذَلِكَ هُوَ النَّصْرُ الْكَامِلُ: أَلَا يَنْجُو الْجَسَدُ وَحْدَهُ مِنَ الْمَحْنَةِ، بَلْ تَنْجُو
الرُّوحُ كَذَلِكَ مِنَ التَّحْوِيلِ إِلَى شَيْءٍ يَكْرَهُهُ اللَّهُ.

(فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ).

انتهى الطريق.

وسقط التعب عند أبواب الجنة.

وبقي السلام.

الفصل السابع عشر

حين يبدأ الفساد من قطع ما أمر الله بوصله

بعد أن رسمت السورة صورة أولي الألباب الذين يوفون بالعهد، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم، ويصبرون ابتغاء وجهه؛ تعرض الصورة المقابلة، ليظهر الشيء بضده: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

ثلاث حركات تصنع الخراب:

نقض.

وقطع.

وإفساد.

ينقضون العهد الذي كان ينبغي أن يحكم علاقتهم بالله.

ويقطعون الوشائج التي كان ينبغي أن تحفظ تماسك الحياة.

ثم يفسدون في الأرض بعد أن أضاعوا المرجعية التي تهديهم،
والصلوات التي تمنع قلوبهم من التوحش.

إن الفساد لا يبدأ دائماً من مشهد كبير يراه الجميع. قد يبدأ من
داخل النفس حين تنتقض عهدها مع الله، ثم يمتد إلى العلاقات، ثم
يتحول إلى نظام اجتماعي يملأ الأرض ظلمًا واضطرابًا.

فإذا انفصل الإنسان عن عهد الله، فقد الميزان الذي يضبط
شهواته.

وإذا قطع ما أمر الله بوصله، فقد الحاضنة الأخلاقية التي تذكره
بحقوق غيره.

وعندئذ يصبح الإفساد نتيجة طبيعية؛ لأن النفس إذا تحررت من
سلطان الحق، لم تتحرر حقيقة، بل انتقلت إلى سلطان الهوى.

(وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ).

وما أشد قبح النقض بعد الميثاق!

إنه ليس جهلاً ممن لم يعرف، بل ارتداد عمن عرف ثم خان
معرفته. رأى الطريق، ثم اختار أن يوليه ظهره. أعطى الكلمة، ثم
جعل منها سلعة يبيعها حين تتعارض مع مصلحته.

وقد لا يعلن الإنسان نقض العهد بلسانه؛ ربما يظل يردد الكلمات نفسها، لكن حياته تنقضها كل يوم. يقول إن الله غايته، ثم يجعل رضا الناس غايته. يقول إن الحق مقدّم، ثم يؤخره عند أول امتحان. يعلن أن العدل مبدأ، ثم يستثني منه قريبه وحزبه وصديقه.

إن العهود لا تُنقض بالكلمات وحدها؛ تُنقض بالمواقف التي تكذبها.

ثم قال: (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ).

يقطعون الرحم.

ويقطعون روابط الإيمان.

ويقطعون بين العبادة والأخلاق.

ويقطعون بين العلم والعمل.

ويقطعون بين السلطة والمسؤولية.

ويقطعون الحق عن القوة؛ فتصير القوة بطشاً.

ويقطعون الرحمة عن العدل؛ فيتحول تطبيقه إلى قسوة.

ويقطعون العدل عن الرحمة؛ فتصبح الرحمة محاباة تضيّع الحقوق.

إن الحياة شبكة من الصلات التي أراد الله لها أن تحفظ توازنها. فإذا امتدت إليها يد القطع، لم يبق الإنسان فردًا معزولاً فحسب، بل أصيبت البنية كلها.

والقاطع يتوهم أحياناً أنه يعاقب غيره، بينما يقطع من روحه جزءاً من الدفء الذي كانت تمنحه الصلة.

ثم تنتهي السلسلة إلى: (وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ).

والإفساد أوسع من التخريب المادي. قد يكون فساداً في العقائد، أو الأخلاق، أو الحقوق، أو الأموال، أو الأمن، أو العلاقات. وقد يكون بكلمة تشعل عداوة، أو كذبة تهدم سمعة، أو محاباة تضع غير الكفاء في موضع تتعلق به مصالح الناس، أو ظلم يُلبس ثوب القانون.

وأخطر الفساد ما ارتدى هيئة الإصلاح.

حين يفسد الإنسان وهو يعلن أنه يبنّي.

ويظلم وهو يتحدث عن المصلحة.

ويقطع المجتمع إلى عصبيات، ثم يسمى ذلك حماية للهوية.

ويمنح المناصب على أساس القرابة والولاء، ثم يسمى ذلك ثقة.

فالفساد لا يصير صلاحًا لمجرد أن تغيّر اسمه.

(أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ)؛ أي الإبعاد والطرْد من رحمة الله.

لقد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل، فكان جزاؤهم أن يُبعدوا عن رحمته.

(وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

في مقابل: (فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ).

فريق صبر ووصل وأوفى، فله سلام الجنة.

وفريق نقض وقطع وأفسد، فله سوء الدار.

وهكذا لا يضيع الاتجاه الأخلاقي للحياة؛ كل طريق ينتهي إلى منزل يشبهه.

الفصل الثامن عشر

الرزق حين يتسع... وحين يضيق

قال تعالى: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ).

ينتقل السياق من مصائر الناس إلى شيء يفتنهم كثيرًا في الحكم على أنفسهم والآخرين: الرزق.

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)؛ أي يوسعه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، وفق علمه وحكمته.

ليس اتساع الرزق دليلًا قاطعًا على رضا الله.

وليس ضيقه دليلًا قاطعًا على هوان العبد عنده.

هذه قاعدة تعيد تشكيل نظرتنا إلى العالم؛ لأن البشر كثيرًا ما يحولون المال إلى شهادة أخلاقية. فإذا رأوا غنيًا، توهموا أن وفرة ما في يده برهان على علو منزلته، وإذا رأوا فقيرًا، عاملوه كأن ضيق رزقه نقص في قيمته.

لكن المال لا يخبرك وحده عن منزلة صاحبه عند الله.

قد يكون البسط شكرًا مطلوبًا.

وقد يكون اختبارًا شديدًا.

وقد يكون استدراجًا لمن أصر على الغفلة.

وقد يكون التضييق حماية.

أو تربية.

أو ابتلاءً يرفع الله به الدرجات.

أو أثرًا لأسباب بشرية يجب علاجها من ظلم وفساد وتقصير.

لذلك لا يحق لأحد أن يقرأ سرائر الأقدار قراءة جازمة من ظاهر
الأرزاق.

كم من إنسان وسع الله عليه، فضاقت نفسه!

وكم من إنسان قل ما في يده، واتسع قلبه بالرضا!

وكم من بيت صغير حمل من السكينة ما لم تحمله القصور!

وكم من قصر فسيح عاش أهله في ضيق لا تراه العيون!

الرزق ليس مألًا وحده. من الرزق قلب مطمئن، وصديق صادق، وعقل مبصر، وصحة تعين على الطاعة، ووقت مبارك، وكلمة طيبة تجد من يفهمها، ونفس تستغني بالله عما في أيدي الناس.

وقد يملك المرء أموالاً كثيرة، ويُحرم القدرة على الاستمتاع بها. فليس الرزق ما يدخل اليد فقط؛ بل ما يصل نفعه إلى القلب والحياة.

ثم تكشف الآية موطن الداء: (وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

ليس المذموم كل فرح بنعمة الدنيا؛ فقد أباح الله الطيبات، والفرح بفضله ورحمته محمود. وإنما المذموم فرح الاغترار الذي يجعل الدنيا غاية، ويحبس العين داخل حدودها، حتى يتوهم الإنسان أن ما جمعه هنا هو النصر النهائي.

إنه فرح من وجد متاع الطريق فظنه الوطن.

فرح من أعجبه زخارف السفينة فنسي الميناء الذي تمضي إليه.

فرح يملأ اللحظة حتى لا يترك في القلب مكانًا لسؤال المصير.

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ).

المتاع شيء ينتفع به الإنسان زمنًا، ثم يفارقه.

ليست الدنيا عدمًا، ولا يأمرنا القرآن بإهمالها؛ فهي مزرعة الآخرة، وفيها العبادة والعمل والعمران. لكنه يضعها في حجمها الصحيح: وسيلة لا غاية، ومعبر لا مقر، ومتاع لا خلود.

ومأساة الإنسان ليست في أن يستخدم المتاع، بل في أن يتحول المتاع إلى سيده.

يبنى البيت، ثم يسكن البيت قلبه.

يجمع المال ليخدم حياته، ثم تصبح حياته خادمة للمال.

يطلب المكانة لتعينه على الخير، ثم يبيع الخير ليحافظ على المكانة.

إن المؤمن يستمتع بالحلال، ويشكر النعمة، ويعمر الأرض، لكنه يظل ممسكًا بالدنيا بيده لا بقلبه. فإذا جاءه منها شيء شكر، وإذا فاته شيء لم تنهدم آخرته.

فما قيمة أن تربح متاعًا ينتهي، وتخسر دارًا لا تنتهي؟

الفصل التاسع عشر

طالب الآية الذي لا يريد أن يهتدي

قال تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ).

يتكرر طلب الآية، مع أن الآيات تملأ السورة من أولها.

السموات آية.

والشمس والقمر آية.

والأرض والجبال والأنهار آية.

وتنوع الثمرات مع وحدة الماء آية.

والبرق والرعد والسحاب آيات.

والقرآن نفسه أعظم الآيات.

فلماذا يطلبون آية جديدة؟

لأن المشكلة ليست دائماً في غياب البرهان، بل في غياب الإنابة.

إن القلب الذي لا يريد الرجوع إلى الله يستطيع أن يحول كل دليل إلى مادة للجدل، وأن يضع بعد كل آية شرطاً آخر. فإذا جاءت العلامة التي طلبها، لم يسلم، بل اخترع سؤالاً جديداً يحتمي به من الحقيقة.

لا يهتدي الإنسان لأنه انتصر في الجدل فقط؛ بل لأنه أقبل على الحق بقلب يريد الهدى.

ولهذا قال: (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ).

الإنابة رجوع متكرر إلى الله، بقلب خاضع يريد الحق ويستعد لاتباعه.

ومن أجمل ما في التعبير أنه لم يقل فقط: يهديه إلى الطريق، بل: (يَهْدِي إِلَيْهِ).

فالغاية ليست معرفة الأحكام وحدها، ولا امتلاك الثقافة الدينية، بل الوصول إلى قرب الله ورضاه. كل طريق في الدين لا يزيد القلب معرفة بالله وعبودية له يحتاج صاحبه أن يراجع طريقة سيره.

والهداية فضل من الله، لكنها ليست عبثًا ولا ظلمًا. من أعرض عن الآيات، وأصر على الكبر، واختار الضلال، أضله الله عدلاً منه. ومن أناب وطلب الحق وصدق في رجوعه، هداه الله فضلًا ورحمة.

ولذلك لا يكفي أن تقول: أريد دليلًا.

بل ينبغي أن تسأل نفسك: إذا جاءني الدليل، فهل أنا مستعد أن أغير حياتي من أجله؟

كثيرون يريدون حقيقة لا تكلفهم شيئًا؛ حقيقة توافق أهواءهم، وتبارك عاداتهم، وتترك مصالحهم كما هي. فإذا طالبهم الحق بتوبة أو تنازل أو تضحية، قالوا: نريد مزيدًا من الأدلة.

وقد يكون ما يسمونه بحثًا عن البرهان هروبًا من ثمن البرهان.

الفصل العشرون

القلب الذي وجد موطنه في ذكر الله

ثم تأتي واحدة من أرق آيات السورة وأقربها إلى القلوب المتعبة:
(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

بعد الرعد والصواعق والبرق والسحاب، نصل إلى القلب.

وكان السورة، بعد أن أرتنا اضطراب السماء، تريد أن ترينا أين
يجد الإنسان سكينته وسط اضطراب العالم.

(الَّذِينَ آمَنُوا)؛ فالإيمان هو الباب.

(وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)؛ فالذكر هو المورد الذي تشرب منه
القلوب أمنها.

والطمأنينة ليست ألا تقع المشكلات، ولا ألا تأتي الأحزان، ولا أن
يصير الطريق مفروشًا بالراحة. إنها استقرار عميق تحت سطح
الألم؛ أن تضرب الحياة حولك، ويبقى في أعماقك ركن لا تصل
إليه العاصفة.

قد تبكي ويكون قلبك مطمئنًا.

وقد تخاف بطبيعتك البشرية، ويظل قلبك واثقاً بالله.

وقد تضيق بك الأسباب، ولا يضيق رجائك في رب الأسباب.

فالطمأنينة لا تلغي الشعور؛ بل تمنعه من التحول إلى انهيار.

(بِذِكْرِ اللَّهِ).

وذكر الله يشمل ذكره باللسان، واستحضار عظمته وأسمائه ووعدته
ووعيدته، وتلاوة كتابه، والعمل بطاعته. ليس الذكر تكرار ألفاظ مع
غياب القلب فحسب؛ وإنما عودة الوعي كله إلى الله.

حين تذكر أن الله يعلم حالك، يخف وجع ألا يفهمك الناس.

وحين تذكر أنه يرى ظلم من ظلمك، يهدأ جنون الرغبة في الانتقام.

وحين تذكر أن خزائنه لا تنفد، يصغر خوفك من انغلاق باب
بشري.

وحين تذكر أن الآخرة حق، تتراجع ضخامة الخسارات العاجلة.

وحين تذكر أن رحمته سبقت غضبه، لا يحول ذنبك بينك وبين
التوبة.

وحين تذكر أن كل شيء عنده بمقدار، تكف عن محاكمة حياتك من لحظة واحدة.

لماذا لا يطمئن القلب بعيدًا عن الله؟

لأنه خلق مفتقرًا إلى معنى أكبر من الأشياء الزائلة. قد تمنحه الدنيا لذة، لكنها لا تستطيع أن تمنحه أمانًا كاملاً؛ لأن كل ما فيها معرض للفقد.

إن اطمأن إلى المال، أقلقه احتمال زواله.

وإن اطمأن إلى القوة، أزعجه الضعف القادم.

وإن اطمأن إلى شخص، بقي يخشى فراقه.

وإن اطمأن إلى مكانته، ظل أسيرًا لعيون الناس.

أما إذا اطمأن بالله، فقد اطمأن إلى الحي الذي لا يموت، والقوي الذي لا يعجز، والرحيم الذي لا تنفد رحمته.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

جاءت (أَلَا) للتنبيه؛ كأن الحقيقة عظيمة، والغافلون عنها كثيرون، فيناديهم القرآن: انتبهوا! إن ما تبحثون عنه في جهات الأرض مودع في صلتكم برب الأرض والسماء.

ليس كل فراغ يملؤه المال.

ولا كل حزن يشفيه السفر.

ولا كل وحشة يزيلها ازدحام الناس.

ففي القلب حجرة لا يفتحها إلا مفتاح الذكر.

وقد يعيش الإنسان بين مئات الوجوه ويظل موحشًا، فإذا خلا بربه شعر أنه ليس وحيدًا. وقد تنفض عنه الأيدي، ويبقى معه علم الله وقربه ومعيته لأوليائه، فيجد من ذلك ما يسند روحه.

والذكر ليس مهرّبًا من الواقع؛ إنه القوة التي تعيد الإنسان إليه بقلب أكثر اتزانًا. الذاكر الحق لا ينسحب من مسؤولياته، بل يعمل وهو أقل خوفًا من الناس، وأقل تعلقًا بالنتائج، وأكثر ثباتًا على المبدأ.

إنه لا يذكر الله لينسى الحياة؛ بل يذكره كي يفهم الحياة، ويضعها في موضعها الصحيح.

الفصل الحادي والعشرون

طوبى... حين يبلغ المؤمن حسن المآب

قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ).

مرة أخرى يجمع القرآن بين الإيمان والعمل.

فالإيمان الذي لا يترك أثرًا في السلوك يحتاج صاحبه إلى تفقد صدقه وكماله، والعمل الذي ينفصل عن الإيمان يفقد بوصلته وغاية التعبد فيه.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

لم يكتفوا بالتصديق الباطن، بل جعلوا له جسدًا يمشي بين الناس.

صار إيمانهم صدقًا في الكلام.

وأمانة في المال.

وعدلاً عند الخصومة.

ورحمة بالضعيف.

وصلاة في الخلوة.

وثباتاً حين ترتفع كلفة المبدأ.

إن العمل الصالح هو الإيمان حين يصير مرئياً.

ثم تأتي الكلمة الندية: (طُوبَى لَهُمْ).

لهم الخير والغبطة والعيش الطيب، ولهم الجنة وما أعد الله فيها لأوليائه.

إنها كلمة قصيرة، لكنها تحمل عالماً كاملاً من البشارة. كأنها يد من الرحمة تربت على أكتاف الذين طال تعبهم: طوبى لكم؛ لم يضع الطريق، ولم تكن تضحياتكم فراغاً.

طوبى لمن بقي نقيّاً في زمن يُكافأ فيه التلون.

طوبى لمن رد المال الحرام ولم يره أحد.

طوبى لمن عفا وهو قادر حين كان العفو أصلح وأقرب للتقوى.

طوبى لمن نام مظلوماً ولم يجعل ظلمه إذناً له بظلم الآخرين.

طوبى لمن سار إلى الله ولو قل رفاقه.

(وَحُسْنُ مَأْبٍ).

المآب هو المرجع والمنقلب.

وهنا يعيد القرآن تعريف النجاح: ليس النجاح أن يكون الطريق كله مريحًا، بل أن يكون المآب حسنًا.

قد يكثر المال ويسوء المآب.

وقد تتسع الشهرة ويسوء المآب.

وقد يصفق الناس لإنسان في أول الطريق، ثم لا يجد في نهايته إلا الحسرة.

وقد يمر المؤمن في الدنيا بضيق وغربة، لكن مواعده مع حسن المآب يجعل كل ألم عابرًا.

إن قيمة الرحلة تُعرف من نهايتها.

والعاقل لا يختار طريقه لأن أوله مزهر فقط، بل ينظر إلى حيث ينتهي.

وسورة الرعد، منذ بدأت بكلمة الحق، تعلمنا أن ننظر أبعد من اللحظة: أبعد من ارتفاع الزبد، واتساع الرزق، وفرح الدنيا،

واضطراب الحوادث. فما يمكث هو الحق، وما ينتظر المؤمن بعد
الصبر هو السلام، وما يختتم رحلة الإيمان والعمل الصالح هو :
(طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ).

الفصل الثاني والعشرون

رسالة الرحمة إلى الذين يكفرون بالرحمن

بعد أن تحدثت السورة عن القلوب التي تطمئن بذكر الله، وعن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، تعود إلى الرسول ﷺ، وإلى مهمته في أمة سبقتها أمم كثيرة: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِنَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ فُلْهُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ).

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ).

لست بدعاً من الرسل، ولست أول من حمل النور إلى أمة يقاوم بعض أفرادها النور. لقد مضت قبلك رسالات، وقامت بين الحق والباطل مواجهات، واستقبل الأنبياء بالتصديق والتكذيب.

وهذا المعنى يخفف عن صاحب الرسالة شعور الوحشة؛ فهو ليس حالة معزولة في التاريخ، بل حلقة في موكب طويل من الدعاة إلى الله.

تتغير الأمم.

وتتبدل اللغات والأمكنة.

وتتنوع صور الاعتراض.

لكن جوهر المعركة يبقى واحداً: وحي يدعو الإنسان إلى عبادة ربه، وهوى يريد الاحتفاظ بسيادته على النفس.

ثم تحدد الآية وظيفة الرسول ﷺ: (لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ).

إنها مهمة التلاوة الأمانة.

لا يبتكر الرسول من عند نفسه رسالة ترضي الناس، ولا يغير الوحي حتى ينسجم مع أهوائهم. إنه يتلو عليهم ما أوحاه الله إليه.

وهنا تتحدد أمانة كل من يحمل شيئاً من العلم بعده: أن ينقل عن الوحي بأمانة، لا أن يجعل الوحي مادة طيعة لتبرير رغباته. لا يخفي ما لا يعجبه، ولا يحمل النص ما لا يحتمل، ولا يجعل بلاغة عبارته ستاراً لمعنى غريب عن هدي الآية.

فشرف المتكلم في الدين ليس في مقدار ما يدهش به الناس، بل في مقدار وفائه لما أنزل الله.

ثم تعرض الآية مفارقة مؤلمة: (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ).

لم تقل فقط: يكفرون بالله، بل جاءت باسم الرحمن.

يكفرون بمن وسعت رحمته كل شيء.

ويجدون من يتقلبون في نعمه.

ويستعملون أنفاساً منحهم إياها الرحمن في إنكار الرحمن.

إن الكفر لا ينقص من ملك الله شيئاً، لكنه يحرم صاحبه من أعظم معرفة يمكن لقلب أن يحيا بها: معرفة الرب الرحيم.

وقد يفر الإنسان من عبادة الله توهماً أن العبادة قيد، ثم يقع في عبودية نفسه والناس والأشياء. وما علم أن الذي يدعوهُ إلى عبادته هو الرحمن، وأن أوامره ليست استنزافاً لحياته، بل حماية لها من أسباب الشقاء.

وفي مواجهة هذا الكفر يأتي الإعلان الثابت: (قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

قد يكفرون به، لكنه ربي.

وقد يجدون رحمته، لكنني أعرفه.

وقد يكثر المعرضون، فلا تغير كثرتهم حقيقة التوحيد في قلبي.

هكذا يكون الثبات: ألا تأخذ عقيدتك من مزاج المجتمع، ولا تجعل إيمانك مرآة لأعداد المؤمنين حولك.

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ).

عليه وحده اعتمد القلب، مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

فالتوكل ليس ترك العمل، بل تحرير العمل من الوهم القائل إن الأسباب تستقل بصنع النتائج. يتحرك المؤمن بكل ما يستطيع، لكنه لا يعبد خطته، ولا ينهار إذا خالفت النتائج حساباته؛ لأنه يعلم أن التدبير لله.

(وَإِلَيْهِ مَتَابِ).

إليه مرجعي ورجوعي وتوبتي.

بدأت العبارة بالربوبية: (هُوَ رَبِّي)، ومرت بالتوكل: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)، وانتهت بالعودة: (وَإِلَيْهِ مَتَابِ).

فالله هو البداية التي منها يستمد المؤمن معناه، والسند الذي عليه يعتمد في الطريق، والنهاية التي يعود إليها.

الفصل الثالث والعشرون

قرآن لو سُيِّرَتْ به الجبال

قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ).

تضعنا الآية أمام صور تهز الخيال:

جبال تسير.

وأرض تنشقق وتنقطع.

وموتى يكلمون.

والمعنى: لو كان هناك كتاب يتحقق به ما اقترحه المكذبون من هذه الخوارق، لكان هذا القرآن جديرًا بذلك؛ لما فيه من قوة الحق وعظمة البرهان، ولكن الأمر كله لله، يجري الآيات وفق مشيئته وحكمته، لا وفق اقتراح المعاندين.

(بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا).

ليس للناس أن يحددوا على الله صورة الآية التي ينبغي أن يرسلها، ولا الموعد الذي يجب أن تقع فيه. إنهم عبيد يتلقون البرهان، لا أرباب يضعون للخالق شروط التصديق.

وكم يتكرر هذا الخلل في علاقة الإنسان بربه! لا يكفي بأن يدعو الله، بل يرسم له طريقة الإجابة وتوقيتها وتفاصيلها. فإذا جاءت الحكمة الإلهية على غير الصورة التي تخيلها، ظن أن دعاءه لم يُستجب.

إنه لا يطلب من الله أن يدبر له، بل يريد أحياناً أن يصدق الله على تدبيره هو!

غير أن الإيمان يعلم صاحبه أن يقول: سأطلب، وأسعى، وأرجو؛ لكن (بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا). يعلم ما لا أعلم، ويرى نهاية الطريق التي لا أراها.

ثم تلمح الآية إلى حقيقة مهيبة: هذا القرآن، وإن لم تتحرك به جبال الحجر أمام أعين المقترحين، فقد حرّك جبالاً من العقائد والعادات المتجذرة في النفوس. شق أرضاً صلبة من القسوة، وأحيا قلوباً كانت في حكم الموت.

وهذا تأمل في أثره المشهود، لا صرف للآية عن معناها الأصلي.

فكم من إنسان كان قلبه أصلب من الصخر، ثم مرت به آية فتهدم في داخله بناء طويل من الغفلة!

وكم من نفس دفنتها الشهوات، ثم كلمها القرآن فعادت حية!

وقد تكون معجزة التحول الداخلي أقل ضجيجًا من تحرك جبل، لكنها أعمق اتصالًا بمقصد الهداية. فما قيمة أن يتحرك الجبل ويبقى القلب في مكانه؟

ثم يقول سبحانه: (أَفَلَمْ يَيَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا).

أي: أفلم يعلم المؤمنون ويتبين لهم أن الله لو شاء لهدى الناس جميعًا هداية قهر لا يتخلفون عنها؟ لكن الله شاء أن يبتليهم، ويمنحهم الاختيار الذي تقوم به الحجة ويظهر به صدق المؤمن وعناد المعرض.

وهذه الحقيقة تحرر الداعية من وهم السيطرة على القلوب.

قد تحسن البيان.

وتصدق في النصح.

وتقدم البرهان.

وتبذل الرحمة.

ثم لا يهتدي من تحب.

ليس لأن الحق ناقص، ولا لأنك تملك مفاتيح القلوب ثم قصرت في استخدامها؛ بل لأن الهداية بيد الله، والإنسان مسؤول عن موقفه من أسبابها.

إن عليك أن تدعو، لا أن تكره.

وأن تبيّن، لا أن تستولي على الضمائر.

وأن تحزن رحمة، لكن دون أن يهلكك الحزن؛ فقد شاء الله أن يبقى مجال الاختيار قائماً.

ثم تخبر الآية أن الذين كفروا لا يزالون يرون آثار أعمالهم: (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ).

القارعة هي الداهية الشديدة التي تقررهم بما يزلزل أمنهم. قد تنزل بهم مباشرة، أو تحل قريباً من ديارهم، فيرون نذرها وآثارها.

لاحظ قوله: (بِمَا صَنَعُوا).

ليست أفعال الإنسان منفصلة عن مصيره. ما يصنعه اليوم قد يعود إليه غداً في صورة لم يتوقعها. فالظلم لا يبقى خبراً في سجل الماضي؛ إنه يطلق في الحياة سلسلة من النتائج. والكذب يهدم الثقة. والفساد يضعف المؤسسات. وأكل الحقوق يصنع غضباً مكتوماً. والتفريط بالقيم يترك المجتمع بلا مناعة.

وقد يتأخر رجوع الفعل إلى فاعله، لكن التأخر لا يعني انقطاع الصلة.

(حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ).

الوعد آت، سواء استعجله الناس أم استبعدوه.

إن الزمن لا يستهلك وعد الله، ولا تحول دونه قوة، ولا يضيعه تبدل الظروف: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ).

قد تتأخر اللحظة في حساب الإنسان، لكنها لا تتأخر عن مواعدها في علم الله.

الفصل الرابع والعشرون

حين يُمهّل الله المستهزئين

قال تعالى: (وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ).

إنها مواساة للرسول ﷺ، ولكل من أودى لأنه حمل حقاً.

الاستهزاء ليس دليلاً على تفاهة الرسالة؛ فقد استهزئ بأكرم البشر على الله. وليس ضحك المستهزئ برهاناً على أنه المنتصر؛ ربما كان يضحك في المهلة التي تسبق الحساب.

(فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا).

أمهلتهم.

تركت لهم زمناً.

لم تأخذهم عند أول كلمة.

ولم تنزل العقوبة مع أول سخرية.

وهذا الإمهال يحمل من الرحمة ما يفتح لهم باب التوبة، ويحمل من الابتلاء ما يكشف حقيقة اختيارهم.

لكن الإنسان قد يسيء قراءة الحلم الإلهي. يرى أبواب الحياة ما تزال مفتوحة، وصحته قائمة، وماله يتزايد، فيظن أن أفعاله قد مُررت بلا حساب.

لا يدري أن الإمهال قد يكون فرصة للعودة، فإن استعملها في مزيد من العناد تحولت الحجة عليه إلى شيء أثقل.

والفرق بعيد بين من يمهل الله رحمة فيرجع، ومن يمهل فيزداد طغيانًا.

(ثُمَّ أَحَدْتُهُمْ).

كم في كلمة (ثُمَّ) من زمن ظنه الغافلون نسيانًا!

استمروا.

وضحكوا.

وتحدوا.

وبنوا شعورهم بالأمان على تأخر العقوبة.

ثم جاءت لحظة طوت المسافة كلها : (أَخَذَتْهُمْ).

إذا أخذ الله، لم تنفعهم القوة التي اغتروا بها، ولم تدفع عنهم الحشود التي أحاطت بهم، ولم يشترخوا بمالهم لحظة إضافية.

(فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ).

ليس السؤال طلبًا للمعلومة، بل دعوة للنظر والاعتبار. فتشوا في آثار الأمم، واقرؤوا التاريخ بعيون لا تخذعها زخارف القوة: كيف كانت نهاية الذين جعلوا السخرية سلاحًا في وجه الحق؟

إن المستهزئ يرى اللحظة.

أما المؤمن فيرى العاقبة.

ولهذا لا ينبغي لصاحب الحق أن تهزه ضحكات عابرة. فقد يكون الاستهزاء آخر ما يملكه العاجز عن مواجهة الحجة. وحين لا يستطيع أن يهدم الفكرة، يحاول أن يصغر صاحبها في أعين الناس.

فلا تنزل إلى ملعب السخرية، ولا تجعل استهزاءهم يفسد أخلاقك. اثبت على المعنى، واترك للزمن أن يكشف من كان زبدًا ومن كان ماء.

الفصل الخامس والعشرون

الرقيب على كل نفس... والشركاء الذين لا أسماء لهم

قال تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

الآية تقيم مقارنة لا يحتاج بطلانها إلى كثير شرح: أيستوي الله القائم على كل نفس، الحافظ لأعمالها، المحصي لكسبها، مع شركاء عاجزين لا يملكون لأنفسهم شيئاً؟

(قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ).

كل نفس!

لا يضيع أحد في الزحام.

ولا تختلط السجلات.

ولا تتخفى جريمة لأنها وقعت بعيداً عن العيون.

ولا يضيع معروف لأنه صنع في زاوية لم تشهد الكاميرات.

هو قائم على كل نفس، يعلم ما كسبت، ويحفظ عليها عملها، ويجزيها به.

وهذه الحقيقة تحمل رهبة وعدلاً وطمأنينة في آن واحد.

رهبة للمسيء؛ فلا يظن أن خفاء فعله يمحوه.

وعدلاً؛ لأن أحداً لن يحمل ذنب غيره، ولن تضيع مسؤوليته وسط الجماعة.

وطمأنينة للمحسن والمظلوم؛ لأن الله قائم على نفسه ونفس من ظلمه، لا يغيب عنه من الأمر شيء.

ثم يقول عن الشركاء المزعومين: (قُلْ سَمُّوهُمْ).

هاتوا أسماءهم.

عرّفوهم تعريفاً يكشف حقيقة ما يملكون.

ماذا خلقوا؟

وماذا يدبرون؟

ومتى استقلوا بالنفع أو الضر؟

إن الباطل يعيش أحياناً في الغموض؛ فإذا طُلب منه أن يحدد نفسه، انكشفت هشاشته. تبقى الكلمة الكبيرة مهيبية ما دامت عائمة، فإذا سألت صاحبها: ماذا تقصد تحديداً؟ وما دليلك؟ سقط كثير من سحرها.

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ).

أتخبرون الله بوجود شركاء لا يعلمهم؟

سبحانه! وهو الذي لا تخفى عليه ذرة، فلو كان لها وجود حقيقي لعلمها. وعدم علمه بها برهان على أنها عدم لا حقيقة له؛ إذ يستحيل أن يخفى على علمه شيء.

(أَمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْقَوْلِ).

أم هي أسماء وألفاظ تجري على الألسنة بلا حقيقة ثابتة وراءها؟

وهكذا تصنع الأوهام سلطانها: تكرر الأسماء حتى يظن الناس أن كثرة تداولها تمنحها وجوداً. لكن الاسم لا يخلق حقيقة، والعبارة المزخرفة لا تحول العجز إلى قدرة.

ثم تكشف الآية المأساة الداخلية : (بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ).

لم يعودوا يرون المكر قبيحًا؛ صار مزينًا في أعينهم.

وهذه من أشد العقوبات النفسية: ألا يكتفي الإنسان بفعل الشر، بل يراه خيرًا، ويفتخر به، ويدافع عنه.

فما دام المذنب يرى ذنبه ذنبًا، ففي قلبه نافذة للتوبة. أما إذا أعاد تسمية الرذيلة، وجعلها فضيلة، فقد أغلق على نفسه باب المراجعة.

يسمي الخداع دهاء.

ويسمي النفاق سياسة.

ويسمي العصبية وفاء.

ويسمي الظلم حزمًا.

ويسمي الجبن حكمة.

وحين تتغير أسماء الأخلاق في الوعي، يصبح المجتمع قادرًا على ممارسة الفساد بضمير مستريح.

(وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ).

زُيِّنَ لَهُمْ مَكْرَهُمْ، فَكَانَ أَثَرُ ذَلِكَ أَنْ ابْتَعَدُوا عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ، وَصَرَفُوا غَيْرَهُمْ عَنْهُ. فَالضَّلَالُ لَا يَحِبُّ أَنْ يَبْقَى فَرْدِيًّا؛ كَثِيرًا مَا يَبْحَثُ صَاحِبُهُ عَمَّنْ يَشَارِكُهُ إِيَّاهُ حَتَّى يَسْكُنَ اضْطِرَابَ ضَمِيرِهِ.

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

مَنْ أَضْلَهُ اللَّهُ عَدْلًا بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِ وَإِصْرَارِهِ، فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ قَلْبًا أَغْلَقَهُ اللَّهُ عَنْهُ. لَا لِأَنَّ اللَّهَ ظَلَمَهُ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ اخْتَارَ الْعَمَى بَعْدَ مَجِيءِ النُّورِ، فَكَانَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ اخْتِيَارِهِ.

الْهُدَايَةُ لَيْسَتْ لَعِبَةً عَقْلِيَّةً مَنفَصَلَةً عَنْ أَخْلَاقِ النَّفْسِ؛ إِنَّ الْكِبَرَ وَالْمَكْرَ وَالْهَوَى قَدْ تَحْجُبُ عَنِ الْإِنْسَانِ حَقِيقَةَ يَرَاهَا مَنْ هُوَ أَقْلُ مِنْهُ عِلْمًا وَأَكْثَرُ مِنْهُ إِنْابَةً.

الفصل السادس والعشرون

عذاب الدنيا... وما وراءه أشق

قال تعالى: (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ).

للكفر والفساد عذابهما في الدنيا قبل الآخرة.

وقد يكون هذا العذاب بما ينزل بالأمم المكذبة من عقوبات، وقد يكون مما تثمره الذنوب من ضيق واضطراب وتمزق وخوف ومحق للبركات، على الوجه الذي تدل عليه النصوص ولا نجزم بتعيينه لكل فرد؛ فليس كل ألم دنيوي عقوبة، وقد يكون البلاء تكريماً ورفعاً للدرجات.

لكن المعصية تحمل في باطنها قدرًا من العذاب، وإن ظهرت في أولها لذة.

الحسد يحرق صاحبه قبل أن يبلغ محسوده.

والحقد يجعل القلب سجنًا.

والكذب يضطر صاحبه إلى بناء كذبة فوق أخرى حتى يعيش خائفًا من سقوط البناء.

والظالم قد يبدو مستريحًا، لكنه يعيش مهددًا بالحقيقة التي يعرف أنها قد تنكشف، وبالمظالم التي تتراكم في صحيفته.

والإعراض عن الله يترك في الروح جوعًا لا تشبعه كثرة الممتلكات.

ذلك أن القلب خُلِقَ لمعرفة الله؛ فإذا حُرِمَ غذاءه، بحث عن بدائل لا تملؤه. ينتقل من شهوة إلى شهوة، ومن نجاح إلى آخر، وكلما حصل على ما أراد سألته الفراغ الداخلي: وماذا بعد؟

لكن مهما اشتد عذاب الدنيا: (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ).

أشق لأنه كامل لا تخففه أوهام الغفلة.

وأشق لأنه لا يشبه آلام الدنيا المحدودة.

وأشق لأن صاحبه يرى يومها الفرصة التي ضيعها، ويعرف أن طريق النجاة كان قريبًا منه، لكنه أعرض عنه.

فألم الحسرة يضاف إلى ألم العذاب.

كان يستطيع أن يتوب.

وكان يستطيع أن يرد الحق.

وكان يستطيع أن يقول: يا رب اغفر لي.

لكن التسوية طال حتى انتهى زمن الاختيار.

(وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ).

لا حصن.

ولا نفوذ.

ولا شفيع بغير إذنه.

ولا قوة تتدخل لتحول بين العبد وبين حكم الله.

وقد قضى الإنسان حياته يبني الوقايات: مألًا يقيه الفقر، وسلطة تقيه الخصوم، وعلاقات تقيه العزلة، وجدرائًا تقيه الخطر. لكنه نسي الوقاية الكبرى: تقوى الله.

فالتقوى ليست خوفًا يسلب الحياة جمالها؛ إنها الوقاية التي تحفظ الحياة من أن تنتهي إلى الحسرة.

ومن لم يجعل بينه وبين سخط الله وقاية من الإيمان والطاعة، فلن
يجد يوم الحساب شيئاً يقيه من الله.

الفصل السابع والعشرون

جنة لا ينتهي ظلها

بعد أن ذكرت السورة عذاب الدنيا، وشدة عذاب الآخرة، وأنه لا وافي من الله، تفتح للمؤمنين نافذة على الجهة الأخرى من المصير: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ).

ما أرق هذا الانتقال!

من عذاب لا يجد أصحابه منه وافيًا، إلى جنة تجري من تحتها الأنهار.

ومن قلق الدنيا المتقلبة، إلى نعيم لا ينقطع.

ومن ظل يزول كلما مالت الشمس، إلى ظل دائم لا تطارده حرارة ولا تبتلعه عتمة.

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ).

إن ما تخبرنا به الألفاظ عن الجنة يقرب إلى عقولنا شيئاً من نعيمها، أما حقيقتها فأعظم مما يستطيع خيالنا المحدود أن يحيط به. نحن نفهم النهر والظل والثمر، لكن ما أعده الله لأوليائه أرفع من صور الدنيا وإن تشابهت الأسماء.

إن الإنسان لا يتخيل إلا مما عرف، والجنة تحمل ما لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

لكن الله يقربها إلى القلب بالمشاهد التي يحبها المتعبون: ماء يجري، وثمر لا ينقطع، وظل لا يزول.

قال تعالى : (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ).

الماء في الدنيا حياة، لكنه يتناقص، ويجف، ويتعكر، وقد يبعد عن طالبه. أما هناك، فالأنهار جارية في موطن النعيم، لا يخاف أهل الجنة نضوبها ولا تغيرها.

وفي السورة التي نزل فيها الماء من السماء، وسالت الأودية بقدرها، وذهب الزبد وبقي ما ينفع الناس؛ يعود الماء مرة أخرى، لكن في صورته الأبدية: أنهار الجنة.

كأن الماء النافع الذي مكث في الأرض كان يلح إلى حقيقة أعظم:
أن ما عند الله لأهل الحق ليس بقاءً مؤقتاً، بل حياة لا ينتهي مددها.
(أَكُلْهَا دَائِمٌ).

ثمار الدنيا موسمية؛ تأتي ثم تنقطع.

تنضج ثم تفسد.

يأكلها الإنسان ثم يعود إليه الجوع.

أما ثمر الجنة فدائم، ونعيمها لا يخضع لقانون النفاد.

وهذه الكلمة تمس أعمق مواضع الألم في التجربة البشرية؛ فنحن
لا نحزن على غياب الأشياء الجميلة وحده، بل نحزن لأنها، حتى
حين تحضر، مهددة بالزوال.

كل فرحة دنيوية تحمل في ظلها سؤال النهاية.

الصحة معرضة للسقم.

والشباب يمضي.

واللقاء ينتهي.

والبيت العامر قد يخلو.

والوجه الذي نأنس به قد تحجبه عنا المقادير.

أما الجنة فهي الدار التي انفصل فيها الجمال عن خوف الفقد.

لا يقطف أهلها الثمرة وهم يخافون أن تكون الأخيرة.

ولا يلتقون أحبّتهم وهم يحسبون زمن الفراق.

ولا يصحون على احتمال أن تنقلب النعمة.

(وِظِلُّهَا)؛ دائم كذلك، ممتد لا تنسخه شمس مؤذية ولا يقطعه رحيل.

وقد عرف أهل الدنيا ظلالاً كثيرة لجؤوا إليها، ثم زالت: ظل القوة، وظل المال، وظل الأشخاص، وظل المكانة. أما ظل الجنة فلا يخذل من أوى إليه.

(تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا).

لم يقل: تلك عاجلتهم؛ فقد تكون عاجلتهم تعباً ومجاهدة وغربة. وإنما قال: (عُقْبَى)، لأن التقوى تُقرأ من نهايتها.

التقوى أن تجعل بينك وبين سخط الله وقاية من الإيمان والطاعة.
أن تقف عند الحد حين تستطيع تجاوزه، وأن تخاف الله في حق لا
يطالبك به صاحبه، وأن تترك الحرام ولو بدا قريباً لذيداً، لأنك
ترى ما وراء اللحظة.

وكل مرة يترك فيها المتقي شهوة لله، فهو لا يضيعها؛ بل يستبدل
لذة منقطعة بنعيم دائم.

(وَعُقِبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ).

مآلان لا يستويان.

جنة أكلها دائم وظلها.

ونار لا يجد أصحابها منها واقياً.

وقد تتشابه الطرق في بداياتها، بل قد يبدو طريق الشهوة أسهل
وأوسع، ولكن الحقيقة لا تُعرف من أول خطوة؛ تُعرف من العقبي.

الفصل الثامن والعشرون

من يفرح بالوحي... ومن يريد منه بعضاً دون بعض

قال تعالى: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ).

من أهل الكتاب من عرف الحق وصدق به، ففرح بما أنزل إلى محمد ﷺ؛ لأنه رأى فيه تصديق أصول الوحي، وتمام الرسالة، والنور الذي كان ينتظره أصحاب القلوب المنصفة.

إنه فرح المعرفة حين تلتقي بما يؤكدها.

وفرح الفطرة حين تسمع الصوت الذي تعرفه في أعماقها.

وفرح المؤمن بالحق، ولو جاء على يد غيره؛ لأنه لا يعبد ذاته، ولا يجعل الصواب ملكية خاصة له.

أما صاحب الهوى فلا يفرح بالحقيقة إلا إذا زادت مكانته، أو وافقت جماعته، أو جاءت من الطريق الذي حدده. فإذا ظهرت على لسان خصمه، كرهها لا لخلل فيها، بل لأنه لم يكن صاحبها.

وهنا يُختبر صدق الإنسان: هل يحب الحق، أم يحب أن يُنسب الحق إليه؟

(وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ).

لا يلزم أن ينكر المعرض الوحي كله؛ قد يختار منه ما يوافقه، ويرفض ما يطالبه بتغيير نفسه.

يرحب بالرحمة حين يحتاج إليها، وينزعج من العدل حين يحاسبه. يحب الحديث عن حقوقه، ويتناقل أمام حقوق الآخرين.

يستحسن الآيات التي تبشره، ويضيق بالآيات التي تكشف عيوبه. يريد من الدين ما يمنحه الطمأنينة، لا ما يفرض عليه المسؤولية.

وهذه التجزئة ليست خضوعاً للوحي، بل إخضاع للوحي إلى الهوى. فالمؤمن لا يجعل نفسه قاضياً فوق النص، يقبل منه ما يعجبه ويرد ما يخالف مزاج عصره أو مصلحته. وإنما يتلقى كلام الله بالتسليم، مع الفهم الصحيح وجمع النصوص ورد المتشابه إلى المحكم.

وقد يَجْهَلُ معنى آية أو حكمتها، فيسأل ويتعلم، ولا حرج في السؤال الصادق؛ لكن الفارق كبير بين من يسأل ليهتدي، ومن يعترض لأنه لا يريد أن ينقاد.

ثم يأتي الجواب الذي يرد الرسالة إلى مركزها : (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ).

القضية ليست مساومة بين الرسول والأحزاب على أجزاء من الوحي. إنما هو أمر من الله بعبادته وحده.

(إِلَيْهِ أَدْعُو).

لا أدعو إلى نفسي، ولا إلى مجد شخصي، ولا إلى عصبية مغلقة؛ إنما أدعو إليه.

وهذه الكلمة ميزان لكل دعوة تنتسب إلى الدين. فكلما عظمت ذات الداعية حتى حجبت المدعو إليه، اختل الطريق. وكلما صار الولاء للأشخاص مقدّمًا على الولاء للحق، تحولت الوسيلة إلى غاية.

الداعية الصادق يدل الناس على الله، ولا يجعل نفسه حجابًا بينهم وبينه.

(وَإِلَيْهِ مَآبٍ).

إليه أعود، وعنده الحساب.

فأنا لا أقيس نجاح رسالتي بمقدار ما أجمع لنفسي، بل بمقدار
صدقي في الدعوة إليه؛ لأن النهاية ليست إلى الجماهير ولا إلى
كتب التاريخ، وإنما إلى الله.

الفصل التاسع والعشرون

حُكْم عَرَبِي لَا يَتَّبِع الْأَهْوَاءَ

قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ).

أنزل الله القرآن حكماً فاصلاً بين الحق والباطل، بلسان عربي مبين، تقوم به الحجة ويتضح به المراد.

والعربية هنا ليست مجرد وعاء صوتي؛ إنها اللسان الذي اختاره الله لروحيه الخاتم. ولذلك لا يُستغنى في فهم القرآن عن معرفة دلالات لغته وسياقاته وطرائق بيانه، ولا يجوز أن تُنتزع ألفاظه من نظمها ثم تُحمّل معاني لم تعرفها العربية ولا يحتملها السياق.

إن التأمل الحق ينبت من أرض التفسير، ولا يقتلع الآية من جذورها.

نفتح من المعنى أبواباً إلى النفس والحياة، لكننا لا نستبدل بالمعنى الذي أراده النص خيالاً أدبياً يعجبنا.

فالجمال إذا فارق الأمانة صار فتنة لفظية، لا تدبراً.

(حُكْمًا عَرَبِيًّا).

إنه ليس تابعًا لأهواء المتلقين، بل حاكم عليها.

والإنسان الحديث — كما الإنسان القديم — يميل إلى أن يجعل نفسه مركزًا للحقيقة: فما وافق رغبته سماه تقدمًا، وما خالفها اتهمه بالتخلف. لكن الوحي جاء ليعيد ترتيب العلاقة: ليست أهواء الإنسان هي المحكمة العليا التي يُعرض عليها كلام الله؛ بل كلام الله هو الميزان الذي تُعرض عليه الأهواء.

ثم يأتي التحذير الشديد: (وَلَّيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ).

والخطاب للنبي ﷺ تنبيهاً له وتحذيراً للأمة من بعده، وهو المعصوم من اتباع أهوائهم في تبليغ الرسالة.

تأمل المقابلة بين العلم والأهواء.

لم يقل: بعد ما جاءك من الرأي؛ بل: (مِنَ الْعِلْمِ).

فالوحي علم، وما خالفه من رغباتهم أهواء.

وقد يتزين الهوى بمصطلحات فخمة، ويقدم نفسه في صورة عقلانية، لكنه يبقى هوى إذا كانت النتيجة محددة سلفاً ثم جرى البحث عن حجة تخدمها.

الهوى ليس مجرد شهوة جسدية؛ قد يكون حب الظهور، أو الخوف على المكانة، أو التعصب للجماعة، أو الرغبة في رضا الجمهور. وقد يتخفى داخل البحث العلمي نفسه، فيختار الباحث من الأدلة ما يؤيد موقفه، ويتجاهل ما يزعجه.

وأخطر الأهواء هو الهوى الذي يظن نفسه علماً.

(مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ).

إذا ترك الإنسان ولاية الله طلباً لرضا الناس، فلن يصبح الناس أولياء له من الله.

وإذا خالف الحق خوفاً منهم، فلن يكونوا وقاية له من عاقبة المخالفة.

قد تكسب باتباع الهوى تصفيقاً عاجلاً، لكن التصفيق لا يتحول يوم الحساب إلى حصن.

والثبات على الوحي لا يعني القسوة أو إغلاق باب الحوار؛ بل يدعو المؤمن إلى الحكمة والرحمة وفهم الناس، من غير أن يبيع الحقيقة ليحصل على رضاهم.

يقترب من قلوبهم، لكنه لا يبتعد عن ربه.

يفهم زمانه، لكنه لا يجعل الزمان ربًّا للوحي.

ويجدد طريقة البيان، من غير أن يبدل أصول المعنى.

الفصل الثلاثون

رسل لهم بيوت وأزواج وذرية

قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ).

ترد الآية على من استنكر بشرية الرسول ﷺ وحياته الأسرية؛ فالرسل من قبله كانوا بشرًا، لهم أزواج وذرية، يعيشون داخل البيوت والأسواق والمجتمعات.

إن الرسالة لا تعني الخروج من الطبيعة البشرية.

والسمو الروحي لا يعني جفاف العاطفة.

والقرب من الله لا يقتضي اعتزال الحياة المشروعة.

بل إن وجود الرسول داخل أسرة يجعل هديه قابلاً للاقتداء في تفاصيل الحياة: زوجًا وأبًا وقريبًا، كما هو نبي ومعلم وقائد.

لقد جاء الدين ليهدي الحياة، لا ليلغيها.

يدخل البيت كما يدخل المسجد.

وينظم المودة كما ينظم العبادة.

ويربي الإنسان في علاقته بأهله كما يربيّه في خلوته مع ربه.

وفي هذا تكريم للحياة الأسرية حين تقام على الطاعة والرحمة. فالبيت ليس هامشاً على طريق الرسالة؛ قد يكون من أهم ميادينها. فما قيمة أن يحسن الإنسان مخاطبة الجماهير، ثم يفشل في الرحمة بمن يعيشون معه؟ وما صدق المبدأ إذا كان يلمع على المنبر ويغيب خلف باب المنزل؟

ثم تقول الآية : (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ).

الرسول عبد لله، لا يتصرف في المعجزات من عند نفسه. لا يأتي بآية كلما اقترح المعاندون، وإنما تقع الآيات بإذن الله وحكمته.

وهذا يعيد ضبط تصورنا عن النبوة؛ فالنبي مؤيد بالوحي، لكنه لا يملك شيئاً من خصائص الربوبية. مقامه عظيم، وعبوديته لله من أعظم أسرار عظّمته.

ثم تختتم الآية: (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ).

لكل وقت وأمر تقدير مكتوب.

ولكل مرحلة موعد.

ولكل بداية نهاية.

ولكل أمة أجل.

ولكل إنسان صفحة زمنية لا يزيد عليها ولا ينقص منها إلا وفق ما سبق في علم الله وكتابه.

إن الإنسان يريد أحياناً أن يجمع فصول حياته كلها في صفحة واحدة. يريد الثمرة ساعة البذر، والنهائية قبل اكتمال الطريق. لكن لكل أجل كتاباً؛ فلا تنضج الأشياء كلها في موعد واحد.

هناك وقت للزرع.

ووقت للانتظار.

ووقت للحصاد.

وقد يكون من العبادة أن تعمل في فصل لا ترى فيه الثمرة؛ لأنك تثق بأن لكل أجل كتاباً.

لكن الآية تحمل تحذيراً كذلك: إن للمهلة أجلاً. فلا يؤجل الإنسان توبته كأن الزمن ملكه، ولا يظن أن صفحة اليوم مضمونة غداً.

كم من إنسان كان يرتب أعمال الأسبوع القادم، بينما كان كتاب
أجله يقف عند هذه الليلة!

ليس تذكر الأجل دعوة إلى ترك الحياة؛ بل دعوة إلى تطهيرها من
التسويق، وأن تعطي كل يوم حقه من العمل الصالح قبل أن يتحول
إلى صفحة لا يمكن تعديلها.

الفصل الحادي والثلاثون

ما يُمحي وما يثبت... وأم الكتاب

قال تعالى: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ).

آية تملأ القلب مهابة؛ لأنها ترده إلى سلطان الله المطلق وعلمه المحيط.

يمحو الله ما يشاء ويثبت وفق حكمته، فيما يجريه من المقادير والأحكام، وعنده أصل الكتاب الذي أحاط علمه بما فيه، فلا يتطرق إلى علمه تبدل ولا خفاء، ولا يظهر له ما لم يكن يعلمه سبحانه.

ما يقع من محو وإثبات واقع بعلم سابق وحكمة كاملة، وليس تغييراً في علم الله؛ فإن علمه أزلي محيط بكل شيء.

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ).

عنده الأصل الجامع الذي لا يخرج شيء عن علمه وتقديره.

نحن نرى الأشياء وهي تتغير.

يُمحي أثر.

ويثبت آخر.

تنتهي دولة وتقوم أخرى.

يمرض صحيح ويشفى مريض.

يفارق إنسان ويولد آخر.

تتبدل الأحوال أمام أعيننا، فنظن أحياناً أن العالم ارتجال مفتوح على المصادفة. لكن خلف التغير الظاهر علم ثابت لا يفاجئه شيء.

نحن نعيش الحدث حين يصل إلينا.

أما الله فقد أحاط به علماً قبل أن يقع، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وهذا المعنى لا يلغي الدعاء والعمل؛ بل الدعاء من قدر الله، والعمل من قدره، وما يترتب عليهما يجري وفق علمه وكتابته وحكمته. لقد أمرنا أن نسأله، وأن نتوب، وأن نصل الرحم، وأن نأخذ بالأسباب، فلا يجوز أن يتحول الإيمان بالقدر إلى حجة للكسل.

أنت لا تعرف ما كتب لك، ولذلك تعمل بما أمرك الله.

تدعو؛ لأن الدعاء عبادة وسبب.

وتتداوى؛ لأن التداوي سبب.

وتسعى؛ لأن السعي واجب.

وتتوب؛ لأن الله وعد التائبين بالمغفرة.

ولا تقل: إن كان الأمر مكتوباً فما فائدة العمل؟ فالعمل نفسه مما كتبه الله سبباً للوصول إلى النتائج.

إن الفلاح لا يترك البذر بحجة أن الله قدر المحصول؛ لأنه يعلم أن البذر جزء من طريق القدر.

وفي الآية رجاء للقلب الذي ظن أن حياته توقفت عند خطيئة قديمة؛ فالله شرع التوبة التي تمحو الذنب، والحسنات يذهبن السيئات. لست مضطراً أن تبقى أسير الصفحة السوداء؛ باب العودة مفتوح ما دامت الروح في الجسد.

لكن التأمل ينبغي أن يبقى منضبطاً: لا نجزم في حادثة بعينها أن الدعاء غير قدرًا لم يكن في علم الله، أو أن الله بدا له ما لم يكن يعلمه؛ تعالى الله عن ذلك. بل كل ذلك جارٍ في علمه السابق، وكتابته، وحكمته.

وإذا كان عنده أم الكتاب، فلماذا يقلق المؤمن كأن مصيره أفلت من التدبير؟

إنه يخطط، لكنه لا يعبد خطته.

ويتمنى، لكنه لا يعترض إذا اختارت الحكمة له غير ما تمنى.

ويتعلق بالرجاء، لكنه يقول في أعماقه: يا رب، اختر لي بعلمك؛ فأنا لا أرى إلا اللحظة، وأنت تعلم الكتاب كله.

لقد ظننت أحياناً أن بقاء شيء هو الخير، ثم كشف لك الزمن أن محوه كان نجاة.

وظننت أن محو شيء نهاية، ثم تبين أن الله أثبت لك بعده ما هو أنفع.

نحن نقرأ الكلمات منفصلة، والله يعلم الجملة كاملة.

ونبكي عند علامة الحذف، ولا ندري أن بعدها معنى لم نصل إليه بعد.

(يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ)؛ فلا تيأس من حال قابلة للتغيير، ولا تأمن نعمة تحتاج إلى الشكر، ولا تغتر بباطل يبدو ثابتاً؛ فكل شيء تحت سلطان الله.

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)؛ فاطمئن إلى علمه، واعمل بأمره، وسلم لحكمته، واعلم أن ما غاب عنك لم يغيب عنه.

الفصل الثاني والثلاثون

عليك البلاغ... وعلينا الحساب

بعد أن قررت السورة أن الله المحو والإثبات، وأن عنده أم الكتاب، تخاطب الرسول ﷺ بحقيقة تحرره من التعلق برؤية النتائج كاملة في حياته: (وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ فَأَيْنَمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ).

قد يريك الله بعض ما وعد المكذبين من ظهور الحق ونزول العقوبة، وقد يتوفاك قبل أن ترى تمام ذلك؛ لكن تحقق الوعد لا يتوقف على حضورك لمشاهدته.

وهذه تربية رفيعة لصاحب الرسالة: أنت عبد مكلف بمهمتك، لا مالك للزمن ولا للنتائج.

(فَأَيْنَمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ).

عليك أن تقول الحق واضحًا.

وأن تؤدي الأمانة كاملة.

وأن تبذل النصيحة برحمة وحكمة.

وأن تثبت حين يعرض الناس.

أما فتح القلوب، وتحديد مواعيد النصر، وإنزال الجزاء، فليس إليك.

كم يتعب المصلح حين يحمل على كتفيه ما لم يكلفه الله حمله! يريد أن يرى كل بذرة زرعها شجرة، وكل كلمة قالها أثرًا، وكل ظلم قاومه منهزمًا قبل أن يرحل. فإذا تأخر الحصاد، تسلل إلى نفسه شعور بأن جهده قد ضاع.

لكن الأنبياء أنفسهم لم يروا في حياتهم كل الآثار التي صنعتها رسالاتهم.

قد يرحل صاحب الكلمة، ثم تظل كلمته تمشي بعده.

وقد يغيب الزارع، وتأتي أجيال تجلس في ظل الشجرة التي غرسها.

وقد يكتب المؤلف معنى صادقًا، فلا يبلغ قارئه الذي سيغيره هذا المعنى إلا بعد أعوام.

ليس شرطًا أن تشهد الثمرة حتى يكون الزرع مثمرًا.

إن الله لا يطالبك بأن تمسك مفاتيح المستقبل، بل أن تحسن عمل اللحظة التي بين يديك.

(وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ).

يا لها من قسمة تستريح بها الروح!

البلاغ عليك.

والحساب على الله.

لا تحاسب الناس كأنك تملك سرائرهم ومصائرهم، ولا تجعل اختلافهم معك إذناً لإخراجهم من عدل الله ورحمته. بين الحق، واترك الحكم النهائي لمن يعلم ما تخفي الصدور.

وفي الآية عزاء للمظلوم كذلك. قد لا يرى في الدنيا تمام القصاص ممن ظلمه، لكن الحساب لم يُلغ؛ إنما انتقل إلى محكمة لا تضيع فيها بيئة، ولا يستطيع فيها قوي أن يشتري القاضي أو يخيف الشاهد.

(وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)؛ فلا تظن أن من أفلت من قانون الأرض قد أفلت من رب الأرض.

الفصل الثالث والثلاثون

الأرض التي تنقص من أطرافها

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

يرى المفسرون في نقصان الأرض من أطرافها ظهور الإسلام واتساع سلطانه، ودخول البلاد في حكمه، فتضييق أرض الكفر على أهلها من جوانبها. وقد قيل في معنى الآية غير ذلك، غير أن السياق ظاهر في إنذار المكذبين بانحسار سلطانهم وتقدم أمر الله عليهم.

كانوا يرون التغيير يقترب.

ما ظنوه دعوة محاصرة بدأ يمتد.

وما حسبه صوتاً يمكن إسكاته أخذ يجد طريقه إلى القلوب والبلاد.

إن الباطل ينظر إلى اللحظة التي يملكها فيحسبها الأبد. يرى الأرض تحت قدميه، والجماهير حوله، وأدوات القوة في يده، فيتوهم أن الغد نسخة مضمونة من اليوم.

لكن الأرض تنقص من أطراف سلطانه وهو لا يشعر.

تبدأ الهزيمة فكرة صغيرة في داخله.

ويبدأ النصر يقيناً صغيراً في قلب من يقاومه.

لا تسقط القوى دائماً في اللحظة التي يعلن فيها سقوطها؛ قد تكون قد بدأت تتآكل منذ زمن، بينما ظلت واجهتها قائمة.

وكذلك الإنسان نفسه؛ ينقص عمره من أطراف أيامه. كل صباح يأتي لا يضيف إلى رصيده فحسب، بل يأخذ من الباقي منه. وهو تأمل ينسجم مع عموم حقيقة الأجل، وإن كان سياق الآية منصّباً على إنذار المكذبين بما يرونه من نقصان سلطانهم.

نحن نقول: مضى يوم.

والحقيقة أن جزءاً منا هو الذي مضى.

إن الزمن لا يمر بجوارنا، بل يمر من خلالنا، ويأخذ معه أعماراً لا تستعاد.

ثم تقول الآية: (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ).

إذا حكم الله، فلا أحد يرد حكمه أو ينقضه.

قد يعقّب البشر على أحكام البشر، ويستأنفون، ويجادلون، ويغيرون القرارات. أما حكم الله فلا تأتي بعده جهة أعلى تراجعها؛ لأنه حكم العليم الذي لا يجهل، والعاقل الذي لا يظلم، والحكيم الذي لا يضع شيئاً في غير موضعه.

والإيمان بهذه الحقيقة يحرر القلب من المبالغة في تعظيم أحكام الناس. قد يحكم عليك مجتمع كامل بالفشل، ويكون لك عند الله شأن عظيم. وقد يرفع الناس إنساناً، وهو عند الله وضيع بظلمه وريائه.

الأحكام البشرية تتأثر بالمظاهر والمصالح ونقص المعلومات.

أما الله فيعلم السر والعلن، والبداية والنهاية، والنية والعمل.

(وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

لا يحتاج سبحانه إلى زمن طويل ليحاسب الخلائق، ولا يشغله حساب نفس عن نفس، ولا تختلط عليه التفاصيل مع كثرة العباد.

وما نراه بعيداً آتٍ بسرعة؛ لأن كل يوم يقربنا منه، وإن ظنناه يبعدنا.

الفصل الرابع والثلاثون

المكر الذي يعود إلى أصحابه

قال تعالى: (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ).

لم يكن الذين مكروا بالرسول ﷺ أول الماكرين. قبلهم أقوام دبروا لإطفاء رسالات أنبيائهم، وأحكموا الخطط، وجمعوا الرجال، وظنوا أنهم يستطيعون محاصرة الحق بحساباتهم.

لكنهم نسوا أن الله يعلم الخطة قبل أن تجتمع لها الرؤوس.

ويعلم الكلمة قبل أن تُهمس.

ويعلم الطريق الذي ستسلكه المؤامرة.

ويملك من الأسباب ما لا يدخل في حساب الماكرين.

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا).

أَيُّ إِن تَدْبِيرِ الْمَكْرِ كُلِّهِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ، لَا يَقَعُ مِنْهُ شَيْءٌ خَارِجٌ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلَهُ التَّدْبِيرُ الَّذِي يَبْطُلُ مَكْرُهُمْ وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. وَمَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، جَزَاءٌ عَادِلًا عَلَى مَكْرِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْبَهَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

الإنسان يُمَكِّرُ بسبب جهله وضعفه؛ يريد أن يصل من الخفاء إلى ما لا يستطيع الوصول إليه من العلن. أما الله فعلمه محيط، وقدرته كاملة، وتدبيره عدل وحكمة.

وقد يسمح سبحانه للمكر أن يمضي خطوات، حتى يظن صاحبه أنه نجح، ثم يجعل في الخطة نفسها باب هزيمته.

كم من حيلة أعدها صاحبها لإسقاط غيره، فكشفت أخلاقه هو!

وكم من كذبة أراد بها دفن الحقيقة، فكانت سببًا في التفات الناس إليها!

وكم من اضطهاد أريد به إسكات فكرة، فتحول إلى منبر انتشرت منه!

فلا تنبهر بإحكام المكر البشري؛ لأنك ترى الحركة ولا ترى اليد الإلهية القادرة على ردها.

ولا يعني هذا أن يترك المؤمن الحذر والتخطيط. فالوعي بمكر الخصوم واجب، وأخذ أسباب الحماية من الحكمة. لكن القلب لا يستسلم للرعب، ولا يظن أن الماكرين يملكون المستقبل.

(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ).

مرة أخرى تعود السورة إلى النفس المفردة.

بعد الأرض والأمم والمكر الكبير، لا تضيع مسؤولية الفرد. كل نفس لها كسبها، وكل يد تكتب سطرها في صحيفة.

قد يختبئ الفرد داخل الجماعة ويقول: فعلنا كما فعل الناس.

أو نفذنا الأوامر.

أو جرى العمل بهذه الطريقة قبل أن نأتي.

لكن الله لا يحاسب الجموع بوصفها ستارًا يمحو الأفراد؛ يعلم ما تكسب كل نفس.

يعلم من خطئ.

ومن نفذ.

ومن رضي.

ومن سكت خوفاً.

ومن قاوم قدر استطاعته.

ومن رفض أن يبيع ضميره وإن دفع الثمن.

إن مسؤولية الإنسان لا تذوب في المؤسسة أو الحزب أو القبيلة أو الجمهور. قد تتعدد المؤثرات وتختلف درجات القدرة والإكراه، والله أعلم بها وأعدل في الحساب؛ لكن المرء سيأتيه فرداً، حاملاً كسب نفسه.

(وَسَيَعْلَمُ الْكَفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ).

سيعلمون، ولكن بعد أن كان في وسعهم أن يعلموا فينجوا.

وسيرون لمن تكون العاقبة: لأهل المكر أم أهل الإيمان، للزبد أم للماء، لمن علا صوته لحظة أم لمن نفع ومكث.

قد يبقى السؤال متنازعا عليه في الدنيا؛ كل فريق يدعي النصر. أما الآخرة فتسقط دعاوى، وتظهر العاقبة بلا غبار.

الفصل الخامس والثلاثون

كفى بالله شهيداً

تصل سورة الرعد إلى آيتها الأخيرة، ولا يزال المكذبون يرددون إنكارهم: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتُ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ).

بعد كل ما عرضته السورة من آيات، يقولون: (لَسْتُ مُرْسَلًا).

إنها العبارة التي أرادوا بها هدم الرسالة كلها.

لم يناقشوا دليلاً مفرداً، بل نفوا أصل النبوة؛ لأن الاعتراف بالرسول يعني الاعتراف بما جاء به، والاعتراف بما جاء به يعني أن تتغير حياتهم.

وكثير من الناس لا يرفض الدليل لأنه ضعيف، بل لأنه قوي إلى درجة تفرض عليه مسؤولية لا يريدوها.

يقولون: (لَسْتُ مُرْسَلًا)، فيأتي الجواب هادئاً، ثابتاً، لا اضطراب فيه: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ).

إذا شهد الله لرسوله بتأييده ووحيه وإظهار آيات صدقه، فما قيمة إنكار المنكرين؟

قد يحاول الناس أن يسلبوك صدقك بتكرار الاتهام.

وقد يصنعون حولك رواية زائفة حتى تشعر بالغربة داخل حقيقتك.

وقد تتكاثر الأصوات التي تنفي ما تعرفه من نفسك، فيوشك الإنسان أن يجعل كثرة الاتهامات دليلاً على صحتها.

لكن المؤمن يتعلم ألا يستمد يقينه كله من محاكم البشر.

إذا علم الله صدقك، فقد علمه من لا تخفى عليه السرائر.

وإذا شهد الله لرسوله ﷺ، لم يضره أن يجتمع المكذبون على الإنكار.

(كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا).

هذه الكفاية ليست دعوة إلى الاستغناء عن البيئات في حقوق الناس، أو ادعاء البراءة بلا دليل؛ فالشريعة تقيم العدل بالشهادات والأحكام الظاهرة. لكنها طمأنينة قلبية لمن أدى ما عليه، ثم كذبه من لا يريد الحق.

قد لا تستطيع أن تشرح نفسك لكل أحد.

وقد لا تبلغ حجتك كل من سمع التهمة.

وقد يموت الإنسان وفي قلوب بعض الناس عنه صورة لم تكن حقيقية.

لكن هناك شاهداً لا يضل ولا ينسى ولا يخدع : (كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا).

ثم قال : (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ).

أي وكفى شاهداً من عنده علم الكتب السابقة، فعرف ما فيها من دلائل النبوة والبشارة بالرسول ﷺ، أو من آتاه الله علم الكتاب فعرف أن القرآن يحمل برهان صدقه في نظمهِ وهدايته وأخباره.

وهكذا تنتهي السورة بالشهادة للرسالة بعد أن بدأت بالشهادة للكتاب: (وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ).

في البدء: القرآن حق.

وفي الختام: محمد ﷺ رسول يشهد الله له.

وبين البداية والنهاية قامت السماوات، وجرت الأنهار، وامتدت الأرض، وأضاء البرق، وسبح الرعد، وسجدت الظلال، ونزل الماء، وذهب الزبد، واطمأنت القلوب بذكر الله.

إنها سورة لم تكتف بأن تقول لك: الحق موجود؛ بل جعلت الكون كله شاهداً عليه.

خاتمة

حين ينتهي الرعد وتبقى الطمانينة

هكذا اكتملت رحلتنا مع آيات سورة الرعد الثلاث والأربعين جميعًا.

بدأت السورة بحروف مقطعة يعقبها الإعلان : (وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ)، وانتهت بقول الله : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ).

وبين الإعلان والشهادة، بنت السورة منظومة كاملة لليقين.

رفعت الإنسان إلى السماوات ليرى اتساع القدرة.

ثم ردت به إلى الأرحام ليرى دقة العلم.

وأرته الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، ليعرف أن الوجود كله يسير إلى موعد.

وأسمعت الرعد يسبح بالحمد، ليدرك أن ما يظنه ضجيجًا كونيًا هو جزء من عبادة لا يحيط بكيفيتها.

وأرته الظلال ساجدة، ليخجل من كبره حين يخضع ظله ويأبى قلبه.

ثم وقفت به عند الماء، وجعلته يرى الزبد مرتفعاً، فصحت له ميزان القوة: ليس كل ما علا باقياً، وليس كل ما هبط ضعيفاً.

الزبد يملأ العين، لكنه يذهب جفاء.

والماء يتوارى تحته، لكنه يمكث في الأرض.

وهذه ليست صورة عابرة في السورة، بل مفتاح لقراءة التاريخ والحياة والنفس.

كم من فكرة باطلة ارتفعت بزخرف القول، ثم لم يبق منها إلا العبرة!

وكم من كلمة حق قيلت في هدوء، ثم وجدت طريقها إلى ضمير الأجيال!

وكم من إنسان عاش للظهور، فانطفأ حين غاب عنه الضوء!

وكم من إنسان أخفى عمله لله، فأثبت الله أثره بعد رحيله!

تعلمنا السورة أن القيمة ليست في مقدار ما يشغله الشيء من سطح المشهد، بل في مقدار ما يحمله من حق ونفع.

ثم أدخلتنا إلى القلب، إلى أكثر مواضع الإنسان اضطراباً، وأعطتنا الجواب الذي لا تبليه الأزمنة: (أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ).

لم تعدنا أن الدنيا ستكف عن البرق والرعد.

ولا أن السحاب لن يثقل.

ولا أن الصواعق لن تقع.

لكنها دلّتنا على الموضع الذي نحتمي فيه وسط العاصفة: ذكر الله.

فالطمأنينة القرآنية ليست سماء بلا رعد، بل قلب يعرف ربه حين يهدر الرعد.

وليست طريقاً بلا ابتلاء، بل يقيناً لا يضل الطريق في الابتلاء.

وليست غياب الأسباب التي تخيف، بل حضور الله في الوعي حتى لا تتحول المخاوف إلى آلهة تحكم الروح.

وعلمتنا السورة أن التغيير لا يبدأ من خارج الإنسان وحده: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

فلا يكفي أن نلعن الظلام، وفي نفوسنا مصانع صغيرة تنتجه.

ولا يكفي أن نطالب بالعدل، ثم نظلّم عند أول مصلحة.

ولا يكفي أن نهتف ضد الفساد، ثم نزكي القريب على الكفاء،
ونسكت عن الباطل حين يصدر ممن نحب.

إن تغيير العالم الذي لا يبدأ بإصلاح الضمير قد يغير أسماء
الظالمين ويُبقي الظلم نفسه.

وعلمتنا أن للعقل أخلاقًا، وأن أولي الألباب ليسوا أصحاب الحيلة
الأوسع، بل الذين يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر به أن يوصل،
ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب، ويصبرون ابتغاء وجهه.
العقل في القرآن ليس آلة للانتصار في الجدل؛ إنه نور يقود صاحبه
إلى الوفاء والخشية والصبر.

وعلمتنا أن الإنسان لا يُهزم حين يؤذيه الشر فقط؛ بل حين يسمح
للشر أن يعيد تشكيل أخلاقه. لذلك كان أولوا الألباب: (يَذَرُّونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ). إنهم يمنعون الإساءة من أن تنسخ إيمانهم،
ويحفظون داخلهم من أن يتحول إلى نسخة ممن ظلمهم.

ثم فتحت لهم السورة أبواب الجنة، ودخلت عليهم الملائكة من كل باب : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ).

ليس سلامًا بلا ثمن.

إنه سلام وُلد من رحم الصبر.

من ليالٍ قاوموا فيها أنفسهم.

ومن مواقف اختاروا فيها الحق وهو مكلف.

ومن جراح لم يسمحوا لها بأن تسلبهم نقاءهم.

ومن أيام ساروا فيها إلى الله دون أن يروا نهاية الطريق.

ثم إذا النهاية سلام.

وبين الرعد في الدنيا والسلام في الآخرة تمتد رحلة المؤمن.

يسمع الرعد، فلا يفزع من الكون؛ لأنه يعلم أنه يسبح بحمد ربه.

ويرى البرق خوفًا وطمعًا، فيعيش بين الخشية والرجاء.

وينظر إلى السحاب الثقال، فيوقن أن الرزق قد يتشكل في الغيب

قبل أن تصل أول قطرة إلى يده.

ويرى الزبد عاليًا، فلا يبيع يقينه للمظاهر.

ويضيق قلبه، فيذكر الله فيطمئن.

ويتأخر النصر، فيتذكر أن عليه البلاغ وعلى الله الحساب.

ويمكر الماكرون، فيعلم أن مكرهم لا يخرج عن سلطان الله.

ويكثر المكذبون، فيقول بقلب ثابت: (كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا).

إن سورة الرعد لا تمنحنا هدوء الغافل الذي لا يرى العاصفة، بل

تمنحنا طمأنينة المؤمن الذي يراها ويعرف ربها.

فيا أيها القلب الذي أتعبه تقلب العالم: ليس كل صوت مرتفع حقًا،

ولا كل ساكن ضعيفًا، ولا كل متأخر منسيًا، ولا كل مفقود ضائعًا.

هناك تدبير لا تراه.

وكتاب لا يغادر شيئًا.

وحساب لا ينسى مظلمة.

ووعده لا يخلف.

ورب تدعوه فتكون له وحده دعوة الحق.

فانثبت كما يثبت الماء تحت الزبد.

وانفع كما ينفع الماء الأرض.

واذكر الله حتى يجد قلبك موطنه.

واعلم أن الرعد مهما طال هديره سينتهي، أما السلام الذي يُقال للصابرين عند أبواب الجنة فلا نهاية له.

تمت تأملات سورة الرعد بجميع آياتها الكريمة، والحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.